الفيلسوف الفارسي الكبير

صدر الدين الشيرازي

[حياته وشخصيته وأهم اصول فلسفته]

أطروحة بقلم

ابي عبد الله الزنجاني عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله تعالى وله الحمد

في فجر القرن الحادي عشر ظهر في (فارس) من مدينة (شيراز) رجل فارسي المحتد حقيق ان يعد من اعظم الفلاسفة الاثولوجيين الذين نظروا في ملكوت السموات والارض وكانوا من الموقنين ·

وهو صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي وكان ظهور هذا الفيلسوف الالآهي الكبير الذي سنأتي على صورة جلية من حياته وشخصيته وفلسفته في عصر كان نجم الفلسفة ضئيل النور لا ناصر لها الا فئة قليلة ممن اختارهم الله لنصر العلم وكان رجال الفكر يستترون وراء ستار التقية حقناً لدمائهم وكانت صولة اهل الجمود شديدة قوية وقلم الفقهاء وخصوم الفلسفة أمضى من السيف ولو لم يكن لمذهب التصوف بصيص نور وانصار قليلون من الذين استنارت قلوبهم بنور العقل لكان هذا الفيلسوف الالآهي صريع جهل أهل عصره وقتيل عصبيتهم ولكان جزاؤه على علمه جزاء شهاب الدين السهروردي — القتيل الشهيد — على فكره ·

هيأ الشرق في كل عصر للعالم رجالاً كباراً وحكماء عظماء منهم من ملأت البسيطة شهرته ومنهم من مات مجهولاً في زاوية غربته · وممن لم يعرفوا حق المعرفة هذا الفيلسوف الرباني الجليل الذي لاشك انه من حسنات القرن الحادي عشر يحق ان يعد من فطاحل الحكماء امثال (ابن سينا) و(ابن مسكويه) و (نصير الدين) الطوسي الفلكي والامام (الغزالي) من الفرس و (ابن رشد) و(ابن باجة) و (محيي الدين بن عربي)

obeikandl.com

من العرب وامثال (سقراط) و (افلاطون) و (ارسطو) وامثال (سپينوزا) [١] (Spinoza) و (مالبرانش) [٢] (Malebranche) من رجال الغرب .

اخترت للاطروحة وصف حياة هذا الفيلسوف وشخصيته واهم فصول فلسفته لاسباب :

الاول انه خدم اللغة العربية أعظم خدمة اذ أخرج كنزاً عظيماً من درر الحكمة ولآلئ العلم : من فلسفة اللاهوت والأخلاق والتصوف والحديث بلغة الضاد ووضع كتباً تبلغ اربعة واربعين او خمسة واربعين كتاباً ورسالة بتلك اللغة [٣] وهذا مازادت به ثروة العلم فهذه الخدمة احرى ان تقدر ولا سيما من علماء العرب ورجال الادب في الشرق والغرب كافة .

الثاني ان روح فلسفته وان غشاها حيناً بالفاظ معماة ولا تظهر الا للمتضلع من فلسفته واصطلاحه ترفع الخلاف في كثير من المسائل التي طالما احتدم الجدال فيها بين الفلسفتين الروحية والمادية ، وان شئت قل انها ترفع الخلاف بين عدة مسائل كان الخلاف فيها بين الفلسفتين جوهرياً كالخلاف بين مذهبي أزلية المادة (العالم المادي) وحدوثها ووجود القوة المبدعة الخالقة المعبر عنها (بالله) واثبات الشعور العام المعبر عنه بالعلم له ووجود الحكمة والغاية من الخلق في جميع اجزاء الكون وعدمها وهذه المسائل بحثت عنها في درس مذهبه الفلسفي ثم اردفت البحث في هذه المسائل برأي هذا الفيلسوف في اثبات الشعور لذرات المادة المعبر عنها في اصطلاح الفلسفة الاغريقية بالهيولى من جماد ونبات : كرأي العالم النباتي الهندي (جاجاديس بوز) [٤] .

---

(١) (سپينوزا) فيلسوف الهي شهير ولد في أمستردام سنة ١٦٣٢ وهو من انصار مذهب وحدة الوجود (البانتيسم) قال الدكتور (رابو برت) في شأنه انه كان مملوءاً بحب الله حتى اصبح لا يرى أمامه الا الله توفي سنة (١٦٧٧م) . (٢) فيلسوف الهي فرنسي ولد في باريس سنة ١٦٣٨ كان يسعى في سبيل التوفيق بين الدين والفلسفة وكان يقول يجب ان نحب الله حباً تاماً توفي سنة (١٧١٥م) . (٣) عثرنا على كتبه الا القليل منها فوجدناها باللغة العربية سوى رسالة صغيرة بالفارسية كتبها في مبادي عرفانية .

(٤) جاجاديس بوز هو عالم نباتي هندي بعدّ من مفاخر الهند في هذا العصر اعترفت

ثم جعلت مسك الختام كلمة صدر الدين في المشق وفيها اعتراف منه بفضل الدمشقيين ودمشق ·

الثالث ان أوجه انظار اهل العلم من الشرقيين والغربيين الى افكاره النيرة وآرائه وفلسفته الروحية والى كتبه النفيسة التي هي مرآة افكاره وافكار عظماء الفلاسفة كسقراط وافلاطون وارسطو وغيرهم من فلاسفة الاغريق والفرس والروم وانباعهم كابن سينا والفارابي وامثالهما ·

ولا انتشار لكتبه القيمة الا عند الخواص من العرب والفرس ، على ان قدره لم يخف على بعض علماء اوربا وكتّابها فان العالم (كونت دوغوبينو (Comte de Gobineau)) السفير الفرنسي الذي أقام من سنة (١٢٧١ هـ الى ١٢٧٤ هـ) في طهران كتب في كتابه (المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى) (Les Religions et les philosophies dans l'azie Centrale) فصولاً عنه لا تتجاوز بضع صحائف ·

وورد ايضاً ذكره مختصراً بقلم المستشرق (كليمان هوار) في مجلة الاسلام التي تنشرها جماعة من المستشرقين · ولكن الاول منها وفقاً لموضوع كتابه بحث عن ناحية اثره في الفلسفة وتأثير فلسفته في اهل عصره · والثاني اعتمد على ما كتبه الكونت (دوغوبينو) في كتابه المذكور وعلى مصادر فارسية وقفنا عليها جميعها ·

« شيراز وطن صدر الدين »

وهي من مدن ايران الجنوبية واقعة على بعد (٢٩) درجة و (٢٧) دقيقة من العرض الشمالي و (٥٢) درجة و (٤٠) دقيقة من الطول الشرقي من (كرينج لندن) و (٦٠) كيلو متراً من اتلال[1] استخر الذي يسميه الافرنج (برس بليس) ويسمي ايضاً (تخت

له اوربا بما أسداه الى المعارف الانسانية من يد واعلنت فوزه بالوصول الى ما كان يتمنى الوصول اليه غير واحد من علمائها الذين بلغوا الذروة العليا بتحقيقاتهم ، وهو الذي اخترع الجهاز (الكرسكوغراف) المغناطيسي الذي يجعل الحركات التي لا ترى بالعين المجردة اكثر وضوحا بخمسين الف الف ضعف واظهر به للملأ حياة النبات وحركته ·

(١) (المجمع) لعل المؤلف يريد اطلال اصطخر ·

جمشيد) اي (عرش جمشيد) وفيه آثار جميلة وصور بديعة هي آيات خالدة تدل على عظمة الملوك الفارسيين القدماء واحرق الاسكندر هذا البناء الجميل العجيب الصنع الشهير باعتدال هواء وصفاء مائه العذب وجمال رياضه الفتان وبهاء حقوله تجلت فيه الطبيعة بباهر ذلك الجمال الذي حرك اوتار نفس السعدي الشاعر الفارسي الطائر الصيت فقال :

خوشا تفرج نوروز خاصه درشيراز كه بركنددل مرد مسافراز وطنش

عزيزمصر چمن شدجمال يوسف گل صبا چودر چمن اوردبوي پيرهنش

اي حبذا التفرج في نيروز[1] ولا سيما في شيراز التي تنسي الغريب وطنه والمرج او الروض اصبح كعزيز مصر والورد كجمال يوسف حين اتى الصبا اليه بشذا قميصه . وهذا وصف جميل بديع لهذا البلد الطيب . واهله اذكياء المشاعر متلهو الذكاء امتازوا بصفاء الروح وجمال الصور تتدفق خواطر كثير منهم بالشعر مشهورون بالميل الى اللهو والترف

بنى هذه المدينة اولاً شيراز بن تهمورث ثم جدد بناءها بعد الخراب محمد بن القاسم ابن عم الحجاج في صدر الاسلام وكانت معسكراً للمسلمين لما هموا بفتح استخر (اصطخر) وكانت عاصمة (آل بويه) وغيرهم من الملوك وعاصمة (كريم خان) الزند . وقد أنجبت غير واحد من رجال العلم المشهورين من الفلاسفة الكبار والشعراء العظماء . كالامام ابي اسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ والعلامة قطب الدين محمود بن مسعود تلميذ نصير الدين الطوسي الفلكي وصاحب الاختيارات في (الهيئة) وحل مشكلات المجسطي المتوفى سنة ٧١٠ هـ . ومصلح الدين سعدي الشاعر العارف الشهير المتوفى سنة ٦٩١ هـ وشمس الدين حافظ محمد العارف الشاعر المتوفى سنة ٧٩١ هـ أو ٧٩٤ وغيرهم ممن نفتخر بهم (فارس) .

في هذه المدينة الجميلة ولد صدر الدين واصبح قبساً منيراً في سماء العلم بعد حين وفيها نمت عواطفه وانقدت فطنته والتهب ذكاؤه كذلك التربة الخصبة تنبت الزنبقة .

(أسرته) : هو صدر الدين محمد بن ابراهيم القوامي الشيرازي الشهير بالاخوند (الاستاذ) المولى صدرا .

---

(١) نيروز هو عيد الفرس الكبير ، يوم اول الربيع والسنة .

أسرة قوام في شيراز اسرة عريقة في النسب والشرف . والقوام لقب عام لرئيس هذه الاسرة في كل عصر ولا تزال الرياسة قائمة فيهم الى هذا الزمن .

ورأس هذه الاسرة هو القوام الذي كان معاصراً لحافظ شمس الدين الشاعر السابق الذكر واثنى عليه في بعض قصائده بقوله :

درباي اخضر وفلك وكشتي وهلال هستند غرق نعمت وحاجي قوام ما

معنى البيت ان نعمة قوام عمت البر والبحر بل الفُلك والفَلك والهلال شاملتها نعمته . وهو مبالغة شعرية في مدحه .

وشك بعض كبار علماء شيراز في نسبة صدرالدين الى هذه الأسرة وقال على ماورواه الثقات عنه ان قوام الذي ينسب اليه صدرالدين غير قوام المعاصر للحافظ شمس الدين ولكن اشتهرت نسبته الى هذه الأسرة الشريفة .

(ولادته) : ولد هذا الحبر الجليل بعد النصف من القرن العاشر الهجري على الأرجح من أب شيرازي اسمه ابراهيم وكان وزيراً في فارس (شيراز) . ولم تعرف سنة ولادته في الكتب التي ورد ذكره فيها الا ان الارجح انه ولد بعد النصف من القرن العاشر الهجري لان أعماله الخطيرة العلمية ووضع تآليفه الكبيرة التي تربو على اربعة واربعين او خمسة واربعين تأليفاً وتصنيفاً ومدة اشتغاله بدرس الفلسفة والحديث والفقه والتصوف واعتزاله في جبال (قم) عدة سنين تاركاً التأليف والتصنيف كما سيشير اليه في كلامه الآتي ذكره — كل ذلك يحتاج الى زمن اكثر من خمسين سنة اي الخمسين سنة بعد القرن العاشر التي وقع فيها موته اذا قلنا انه ولد في فجر القرن الحادي عشر .

ولما لم يرزق لابيه الوزير ولد في مدة طويلة طلب الى الله طلباً حثيثاً ان يرزقه صبياً فرزقه (صدراً) بعد ان دعا أدعية طويلة ، وفي ايام عديدة وبعد ان تصدق على المحتاجين والمقترين ، ولا سيما بعد ان تصدق بثلاثة توامين [1] فوزعها على أناس فقراء مارين ولم يكن له غيرها ومنذ طفولته لقب الولد (صدراً) لفضله الكبير واختار له مهذباً حاذقاً وما عتم ان ظهرت عليه أمارات الذكاء .

---

(١) (المجمع) التوامين جمع تومان وهو نقد ايراني ذهبي وقيمته ٨ فرنكات و ٨١ سانتيماً .

وكان والده ذات يوم وكّله على البيت وعلى رعاية مافيه ثم أراد الوقوف على ما أنفقه في المدة المذكورة فراى ان بين النفقات اليومية ثلاثة تومانين في باب الحسنات فتعجب والده الوزير من هذا الامر وقال لابنه ما هذا ؟ قال ابنه يا ابي هذا ثمن ما يكلفك اياه ولدك . وفي صنعه هذا دلالةٌ على جوده وان فطرته كانت تهتز للمعروف .

(وروده الى أصبهان) : ولما ذهب من شيراز الى اصبهان تعرف في حمام من حمامات المدينة الى السيد ابي القاسم الفندرسكي[1] وكان السيد في عهده من اكابر العلماء في علوم ما وراء الطبيعة . ولم يكن السيد يعرفه لكن لما سلم عليه . قال له السيد لا شك في انك غريب عن البلدة ياولدي قال الصدر نعم . قال له ومن اي بيت انت ومن اي مدينة ولاي سبب قدمتَ الى اصبهان . فقال اني من (فارس) وقدمت الى هنا لأتمم دروسي قال السيد على اي العلماء تريد ان تقرأ ؟ قال على من تختاره لي . قال السيد اذا أردت ان توسع عقلك فعليك بالشيخ بهاء الدين اما اذا أردتَ ان ينفتق لسانك فعليك بامير محمد باقر . فقال اني لا أعني بلساني فذهب الى الشيخ بهاء الدين فأخذ يتلقى العلم عنه من فلسفة وكلام وكان طموحًا الى ان يعرف افكار اليونانيين وما دوّنوه في كتبهم ولذلك كان يصرف كل دراهمه في مشترى الكتب الفلسفية فأجاد في كل ماسمعه عن أستاذه حتى ان معلمه قال له ذات يوم تلقيت جل علومي وعرّفه بالمير محمد باقر الداماد فقال له اذهب اليه وأنني منه بكتاب وكان ذلك وسيلة لتعرفه اليه .

ولم يدر في خلد الصدر ان وراء الاكمة ما وراءها فواجه الاستاذ المنطقي من غير ان يخامره ريب وفي ذلك الوقت كان مير محمد باقر يعلّم فسمع الصدر درسه ، ولما عاد التلميذ الى أستاذه قال له شيخه ما كان يفعل مير محمد باقر ؟ قال كان يدرس . فقال شيخه اني لم أكن محتاجًا الى طلب كتاب من مير محمد باقر انما اتخذت هذه الوسيلة لكي اعرفك بدروسه وتحكم بنفسك على مقدرة علمه فينبغي ان تتلقى علومه فأطاعه الصدر وفي بضع سنوات بلغ الدرجة القصوى من البلاغة وهي الدرجة التي عُرف بها .

(آراء الفقهاء في اعتقاد صدر الدين) : وهذا الفيلسوف كأمثاله من الفلاسفة

---

(١) سيأتي ذكر السيد في ضمن تراجم اساتذة صدر الدين .

الاحرار ذوي الافكار النيرة لم يسلم من الانتقاد المر والتحقير واصبح هدفاً لسهام اللوم والتكفير وهناك بعض الاقاويل في شأنه من مقاربي عصره ومعاصريه .

قال السيد نعمة التستري [1] لما وردت شيراز لم اتكل الا على ولد صدر الدين الشيرازي واسمه (ميرزا ابراهيم) وكان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية فاخذت عنه شطراً من الحكمة والكلام وقرأت عليه حاشيته على حاشية شمس الدين الخفري على شرح التجريد وكان اعتقاده في الاصول خيراً من اعتقاد ابيه وكان يتمدح و يقول اعتقادي في اصول الدين كاعتقاد العوام وقد اصاب في هذا التشبيه اه .

وقال الشيخ يوسف البحراني [2] ولصدر الدين ابن فاضل اسمه (ميرزا ابراهيم) وكان فاضلاً متكلماً جليلاً نبيلاً عالماً لا كثر العلوم ولا سيما في العقليات والرياضيات قال بعض اصحابنا بعد الثناء عليه هو في الحقيقة مصداق قوله تعالى : (يخرج الحي من الميت) قد قرأ على جماعة منهم والده ولم يسلك مسلكه وكان على ضد طريقة والده في التصوف والحكمة .

وقال صاحب روضات الجنات [3] (وكأنه سلك الطريقة الوسطى) و يوجد في غير واحد من مصنفاته (اي مصنفات صدر الدين) كلمات لا تلائم ظاهر الشريعة كأنها مبنية على اصطلاحاته الخاصة او محمولة على ما لا يوجب الكفر وفساد اعتقاد له بوجه من الوجوه وان اوجب ذلك سوء ظن جماعة من الفقهاء الاعلام به و بكتبه بل افتى طائفة منهم بكفره .

فمنهم من ذكر في وصف شرحه على الاصول (اصول الكافي) [4] شروح الكافي

---

(١) عالم شهير له بعض آثار علمية ولد سنة ١٠٥٠ ه وتوفي ١١١٢ ه .

(٢) الشيخ يوسف البحراني من كبار محدثي الامامية وفقهائهم ولد سنة ١١٠٧ ه وتوفي سنة ١١٨٦ ه . (٣) هو محمد باقر بن امير زين العابدين من فضلاء المتأخرين ولد في ٢٢ صفر سنة ١٢٢٦ ه بقصبة خونسار وتوفي في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٣١٣ باصبهان وكتابه روضات الجنات في تراجم العلماء مشهور طبع في ايران في سنة ١٣٠٧ ه .

(٤) كتاب اصول الكافي احد الكتب الاربعة المعتمدة في الحديث عند الامامية

كثيرة جليلة قدراً واول من شرحه بالكفر (صدراً) وقال الشيخ يوسف البحراني السابق الذكر في شأن تلميذه (المحسن الفيض) الآتي ذكره :

له من المقالات على مذهب الصوفية والفلاسفة ما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله مثل ما يدل في كلامه على القول بوحدة الوجود وقد وقفت به على مقالة قبيحة صريحة في القول بوحدة الوجود قد جرى فيها على عقائد ابن عربي واكثر فيها من النقل عنه وان عبر عنه ببعض العارفين وقد اوردنا جملة من كلامه في تلك المقالة وغيرها في رسالتنا[1] في الرد على مقالته نعوذ بالله من طغيان الافهام وزلل الاقدام وقد تلمذ في الاصول (اي اصول العقائد) للمولى صدر الدين الشيرازي ولذا كانت كتبه الاصولية على قواعد الصوفية والفلاسفة .

بل كان في عصره هدفاً لسهام لوم اكثر عارفيه من اهل الجمود ايضاً على انا نجد قليلاً من معاصريه ومقاربي عصره الذين لم يعشوا عن نور الحق يعظمونه ويجلونه حق تعظيمه وتبجيله . قال السيد علي خان صاحب سلافة العصر في ضمن ترجمة الملا فرج الله التستري المعاصر له ما نصه :

قال مؤلف الكتاب (عفى الله عنه) أعيان العجم وأفاضلهم من اهل هذه المئة كثيرو العدد ومنهم المولى صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي الشهير بالملا صدراً كان اعلم اهل زمانه بالحكمة متفننا بسائر الفنون له تصانيف كثيرة عظيمة الشأن في الحكمة وغيرها .

وقال صاحب امل الآمل محمد بن ابراهيم الشيرازي فاضل من فضلاء المعاصرين ثم نقل نص عبارة صاحب السلافة الآنفة الذكر . وقال الشيخ يوسف البحراني محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي الشهير بالمولى صدراً كان حكيماً فيلسوفاً صوفياً بحثاً .

وقال صاحب روضات الجنات[2] من المتأخرين :

لجامعه الامام المحدث ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني الرازي المتوفى سنة (٣٢٨) او (٣٢٩) .

(١) اسم هذه الرسالة (النفحات الملكوتية في الرد على الصوفية) .

(٢) (ص ٣٣١ ج ٢) .

صدرالدين محمدبن ابراهيم الشيرازي الشهير بالمولى صدر كان فائقاً على سائر من تقدّمه من الحكماء الباذخين والعلماء الراسخين الى زمن نصير الدين يعني نصير الدين الطوسي الفلكي الفيلسوف المتوفى سنة ٦٦٠ .

ان من درس هذه الكلمات يعلم ان السير على آثار الآباء والتقليد في العقائد الدينية وترك الاهتداء بنور العقل والفلسفة كانت في ذلك العصر اوصافاً تعدّ فضيلة لصاحبها وفيها حياة له كما ان في الفلسفة موتاً للفيلسوف .

نقل مؤلف كتاب قصص العلماء [1] ان ملاّ محرابعلي الاصبهاني احد العرفاء الصوفيين المعاصرين لابيه الشيخ سليمان وجد يوماً الملا محمد كاظم الهزارجريبي عند قبر الحسين (عليه السلام) في كربلا اخذ بعد صلوة الصبح يلعن كبار العرفاء الصوفيين واحداً بعد واحد حتى لعن المولى صدراً مات مرة .

ثم لعن الملا محرابعلي فسئل الملاّ محرابعلي وهو لا يعرف الملا محرابعلي عن سبب لعنه له قال انه يعتقد بوحدة واجب الوجود فقال له فالعنه فانه حقيق بلعنك بهذه العقيدة ولم يكن يميز بين الاعتقاد بوحدة الوجود ووحدة واجب الوجود .

(وفاته) : اتفق الشيخ يوسف البحراني وصاحبا أمل الآمل [2] وروضات الجنات على انه توفي في ضمن العشر الخامس من المائة الحادية عشرة .

وخالفهم محمد حسن خان (صنيع الدولة) مؤلف كتاب (منتظم ناصري [3]) الذي وضعه في وقائع السنين في الشرق والغرب وسمي الكتاب باسم الشاه ناصرالدين القاجاري قال في صفحة (١٩٦ ج ٢) من كتابه ان صدر الدين توفي في سنة (١٠٥٩ هـ) (١٦٤٩ م) وحدثت وفاته في البصرة حين توجهه الى مكة .

(كلماته وشكواه عن اهل عصره) : يظهر من بعض كلماته انه سئم من جهلة اهل

---

(١) قصص العلماء كتاب في تراجم العلماء لمؤلفه محمد بن سليمان التنكابني الموجود في عصر ناصرالدين شاه القاجار . (٢) صاحب امل الامل هو محمد بن الحسن الشهير بالحر العاملي ولد سنة ١٠٣٣ ولم تثبت عندي سنة وفاته . (٣) صنيع الدولة من فضلاء عصر ناصرالدين شاه وأدبائه المشهورين وامرائه الأجلّة .

عصره يقول في ديباجة كتابه (الشواهد الربوبية) بعد الحمد وأصلي على نبيه وآله المطهرين من ظلمات الخواطر المضلة المحفوظين في سماء قدسهم وعصمتهم عن طعن اوهام الجهلة واستعيذ به من جنود الشياطين ثم قال (اللهم اجعل قبور هذه الاسرار صدور الاحرار) وقال في فاتحة كتابه (الاسفار) بعد بيان عزمه على تصنيفه ٠

ولكن العوائق كانت تمنع عن المراد وعوادي الايام تضرب دون بلوغ الغرض بالاسداد فأقعدتني الايام عن القيام وحجبني الدهر عن الاتصال الى المرام لما رأيت من معاداة الدهر بتربية الجهلة الاراذل وشمشمة نيران الجهالة والضلال ورثاثة الحال وركاكة الرجال وقد ابتلينا بجماعة غاربي الفهم تعشو عيونهم عن أنوار الحكمة وأسرارها وتكل بصائرهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها يرون التعمق في الامور الربانية والتدبر في الآيات السبحانية بدعة ومخالفة أوضاع جماهير الخلق من الرعاع ضلالة وخدعة الى ان قال : فأصبح الجهل باهر الرايات فأعدموا العلم وفضله واسترذلوا العرفان واهله وانصرفوا عن الحكمة زاهدين ومنعوها معاندين ينفرون الطباع عن الحكماء و يطرحون العلماء العرفاء الاصفياء وكل من كان في بحر الجهل والحمق اولج ، وعن صفاء المعقول والمنقول اخرج ، كان الى اوج القبول والاقبال اوصل ، وعن ارباب الزمان اعلم وافضل :

كم عالم [1] لم يلج بالقرع باب منى وجاهل قبل قرع الباب قد ولجا

وكيف ورؤساؤهم قوم عزل من سلاح الفضل والسداد ، عارية مناكبهم عن لباس العقل والرشاد ٠

يشير هذا الكلام الى ان صدر الدين لم يكن يستطيع من التصريح بفلسفته كما يأتي النص عليه في كلامه في مبحث علم الباري تعالى حيث يقول في رأيه في علمه تعالى انه لا يرى في التصريح به مصلحة وتنبه على ذلك من درس حياة صدر الدين من الافرنج ففي كتاب (الكنت دوكوبينو) ومعلمة الاسلام الانجليزية ان صدر الدين اخفى مذهبه من باب التقية (الكتمان) خوفاً من اضطهاد المجتهدين له وغشاه قصداً بالفساط معماة ومقالته بث شكوى من اهل الجمود ومتفقهة عصره الذين دأبهم في كل عصر

(١) وفي نسخة عاقل

ومصر محاربة احرار الافكار بسلاح الدين وان كانوا لا يعرفون من الدين الا قشره وهم أبعد من لبه كبعد السماء والارض .

(اهل الجمود والعوام في نظره) : نظر صدر الدين الى اهل الجمود والعوام بالاحتقار يقول في اول كتابه (الاسفار) بعد وصف فضل الفلسفة وانها طريق معرفة الحق الوحيد وليعلم ان معرفة الله تعالى وعلم المعاد وعلم طريق الآخرة ليس المراد بها الاعتقاد الذي تلقاه العامي او الفقيه وراثةً وتلقفاً فان المشغوف بالتقليد والجمود على الصورة لم ينفتح له طريق الحقائق كما ينفتح لكرام من الالمعيين) .

و يقول اني استغفر الله كثيراً مما ضيعت شطراً من عمري في تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من اهل الكلام :

حتى تبين لي بنور الايمان وتأييدات المنان ان قياسهم عقيم وصراطهم غير مستقيم) .

(تأثير معارضة اهل الجمود للفلسفة في نفسه) : لما لم يجد اقبالاً عليه وعلى الفلسفة من اهل عصره كما يريد سئم وخمد خاطره الفياض وترك التدريس والتأليف مدة من الزمن يقول في كتابه الكبير ضربت عن ابناء الزمان صفحاً وطويت عنهم كشحا فألجأني خمود الفطنة وجمود الطبيعة لمعاداة الزمان وعدم مساعدة الدوران الى ان انزويت في بعض نواحي الديار (لعله يشير الى هجرته الى بعض جبال قم)[1] واستترت بالخمول والانكسار منقطع الآمال منكسر البال متوفراً على فرض أوديه وتفريط في جنب الله اسعى في تلافيه لاعلى درس القيه او تأليف اتصرف فيه اذ التصرف في العلوم والصناعات واثارة المباحث والمعضلات ودفع المعضلات وتبيين المقاصد ورفع المشكلات مما يحتاج الى تصفية الفكر وتهذيب الخيال عما يوجب الملال والاختلال واستقامة الاوضاع والاحوال مع فراغ البال .

---

(١) قم مدينة في ١٢٠ كيلومتراً من جنوب طهران الغربي وكان بدء تمصيرها في ايام حجاج بن يوسف سنة ٨٣ تقدسها الايرانيون فان فيها دفنت اخت الامام علي بن موسى الرضا عليهم السلام وهي الآن تعدّ من المدارس الدينية الكبرى ويدرس فيها الفقه والاصول والأدب .

ومن اين يحصل للانسان مع هذه المكاره التي يسمع ويرى من اهل الزمان ويشاهد مما يكب عليه الناس في هذا الاوان من قلة الانصاف وكثرة الاعتساف وخفض الاعالي الافاضل ورفع الاداني والاراذل وظهور الجاهل الشرير والعاصي النكير على صورة التحرير وهيئة الحبر الخبير الى غير ذلك من القبائح والمفاسد الملازمة الفاشية اللازمة والمتعدية مجال المخاطبة في المقال وتقرير الجواب عن السؤال فضلاً عن حلّ المعضلات وتبيين المشكلات ثم تمثل برباعي من رباعيات (الفرس) وهو :

از سخن پرد رمکن همچون صدف هر گوشرا
قفل کوهر ساز یاقوت زمرّد بوشرا

درجواب هر سؤالي حاجت گفتار نيست
چشم بينا عذرمي خواهد لب خاموشرا

(١) معناه لاتجعل كثيراً كل اذن غير واعية مشحونة كالاصداف بدرر المعاني .

(٢) واقفل شفتيك اليافوتيتين

(٣) لا حاجة للقفال في جواب كل سؤال

(٤) فان العين البصيرة تعذر الشفة الساكتة للانسان .

ثم اقتبس كلام امير المؤمنين علي عليه السلام وقال اقتفيت اثر علي عليه السلام مطلّق الدنيا مؤثراً الآخرة على الاولى فأمسكت عناني عن الاشتغال بالناس ومخالطتهم وأيست من موافقتهم ومؤانستهم وسهلت علي معاداة الدوران ومعاندة ابناء الزمان وخلصت عن انكارهم واقرارهم وتساوى عندي اعزازهم واضرارهم فتوجهت توجهاً غريزياً نحو مسبب الاسباب وتضرعت تضرعاً جبلياً الى مسهل الامور الصعاب فلما بقيت على هذه الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال زماناً مديداً وامداً بعيداً واشتعلت نفسي بطول المجاهدات اشتعالاً نورانياً والتهب قلبي التهاباً قوياً ففاضت عليها لكثرة الرياضات أنوار الملكوت وحلّت بها هنايا الجبروت ولحقتها الاضواء الأحدية وتداركتها الألطاف الالهية فاطلعت على أسرار لم اكن اطلع عليها الى الآن وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان بل كل ماعلمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان انتهى » .

وانت تعلم ايها القارئ ان هذه الكلمات التي ملؤها الشكوى من الجهل والجاهل وعصر الجهل لاتصدر الا عن نفس رجل بلغ في العلم وتذكية النفس مرتبة رفيعة وحاول ان يستضيئ الناس بنبراس علمه و يسلكوا سبيل الهدى الامثل و يتبعوا نور شمس العقل الاجمل .

ثم وجد الاقدار تجري على خلاف مايرومه فنفر الجاهل وتكرمه وتذل العالم وتلجمه ورأى من اتبع نورالعقل اصبح هدفاً لسهام الجهل . فسئم من الحياة وقطع عنها كل الصلات ونظر الى العالم نظر المتحير وطلب النجاة من الله العزيز القدير وكانت حاله في تركه وطنه وانزوائه في جبال قم واستظلاله تحت ظلال السكون والوحدة للتفكر في ملكوت السموات والارض والتأمل في الاسرار الالهية تشبه حال الامام (الغزالي) في تركه بغداد وتأملاته في القدس والشام فكلاهما جعلا تهذيب النفس بالرياضة والمجاهدة وتحليتها بالفضائل وتخليتها عن الرذائل سبيلها الموصل الى الله الجليل والعارج بها من مرتبة البرهان — الى عالم الشهود والعيان ذاك عاد بعد سنين الى بغداد فسلك سبيل الارشاد وهذا نزل من جبال قم وفجر عين خاطره الفياض فصنف والف واجاد .

(حالة ايران العلمية في العصر الصفوي) يحسن بنا ان نذكر كلمة في حالة ايران العلمية في العصر الصفوي لنتسع بها احاطة القارئ الكريم بنواحي البحث .

ان من جال ديار الفرس ونظر الى مدارسها المبنية في عصر الملوك الصفويين يتمثل أمامه سعي هؤلاء الملوك العظماء وامرائهم ورجالهم في نشر العلوم ولاسيما علوم الدين فانه يجد في اصفهان كرسي المملكة الصفوية وسائر ديار ايران معاهد علمية ومدارس فخمة بنيت على الطرز القديم تلألأ قبابها الزرقاء بين أشجار وأزهار و بستان وريحان .

وحجرات الطلاب مطلة عليها وجدرانها مزينة بالفسيفساء على أجمل طرز تسحر العيون كثيراً ما نقشت فيها آيات قرآنية ونصوص دينية .

فصورة قطعة من مدرسة الخان في شيراز التي تراها في ضمن هذه الرسالة تمثل لديك جمال البناء في القرنين العاشر والحادي عشر وهندسته في ايران وكانت عناية هؤلاء الملوك والامراء والذين اتبعوهم باحسان لنشر العلم سبباً لوقف املاك كثيرة من اراضي ومزارع وقرى لصرفها في سبيل العلم ونشره وترقية طلبته .

فبقية تلك الاملاك الموقوفة في العصر الصفوي الآن في ايران يبلغ ثمنها ملايين من الجنيهات وكان هؤلاء الملوك ورجالهم بانفسهم يتفقدون حال طلبة العلم ويكرمونهم غاية الاكرام . وفي كتاب المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى ان أم الشاه عباس الصفوي الكبير على جلالتها مع جماعة من الاميرات الشريفات كنّ يأتين المدارس في كل شهر مرة و يسألن عن حال الطلاب و يجمعن ثيابهم ليغسلن اوساخها و يعطينهم ثياباً جديدة لئلا يشتغلون بغير الدرس وهذا الصنع الجميل يدل على كبير اهتمامهم بنشر العلم وترقية شؤون الدين في هذه المعاهد العلمية ، كان الطالب يتلقى دروسه من الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان وسائر فروع العلوم العربية والأدبية والفقه واصوله والحديث والكلام والعلوم الرياضية بجميع فروعها والأخلاق وقليل من الفلسفة الاغريقية والحكمة الفهلوية على خفاء لان الفلسفة كانت تعد مخالفة لمبادئ الدين .

(تلقيه علومه وفلسفته) : ولما أتم صدر الدين دروسه الاولية في شيراز رحل الى اصبهان حيث كانت مجمع رجال العلم والحكمة ومقتبس نور العرفان في ايران وفيها كبار العلماء والحكماء والاساتذة والمدرسين أمثال بهاء الدين العاملي والمير محمد باقر الداماد والمير الفندرسكي الآتي ذكرهم وكان الطلبة يقصدونها من الأقطار الفارسية القريبة والنائية لتلقي العلوم العالية فيها .

(اساتذته) : لاشك ان نفس مثل صدر الدين الظمأى الى رشف كأس العلم والحكمة لا تقنع باساتذة قليلين فظني قوي انه ادرك كثيراً من شيوخ العلم والحكمة والادب في عصره الا ان اساتذته المشهورين هم الشيخ الامام الجليل بهاء الدين العاملي والفيلسوف الالهي المير محمد الباقر الحسيني الشهير بالداماد[1] وكانا باصبهان والاول هو العالم الطائر الصيت بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني ولد في بعلبك عند غروب الشمس يوم الاربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة الحرام سنة ٩٥٣

(١) داماد بالفارسية الصهر اشتهر به لان اباه محمد كان صهر الشيخ علي بن عبد العال الكركي الشهير بالمحقق الثاني بين علماء الشيعة وكان مشهوراً بالداماد واشتهر به ابنه ايضاً .

ثلاث وخمسين وتسعمائة وصاحب الشاه عباس الصفوي توفي في ١٢ شوال سنة ١٠٣٠ باصبهان ونقل قبل دفنه الى طوس (خراسان) ودفن في جوار قبر الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقبره مشهور فيه واشهر كتبه : تشريح الافلاك . رسالة نسبة ارتفاع اعظم الجبال الى قطر الارض . وخلاصة الحساب . رسالة في بيان ان انوار الكواكب مستفادة من الشمس . رسالة في حل اشكال القمر وعطارد وتفسيره المسمى بالعروة الوثقى .

فوض اليه منصب شيخ الاسلام من الملك الصفوي وكان هذا المنصب ذا اهمية كبرى في ذلك العصر والثاني هو محمد الباقر بن محمد الحسيني فيلسوف الهي جليل وفقيه نبيل كان شاعراً يجيد الشعر بالفارسية والعربية وخطيباً مصقعاً خطب خطبة الملك في جامع اصبهان يوم جلس فيه الشاه صفي الصفوي في عرش الملك وصاحب الشاه عباس الكبير . توفي سنة ١٠٤٠ هـ على رأي صاحب منتظم ناصري وسنة ١٠٤١ على ما ذكره صاحب امل الآمل . واشهر كتبه : القبسات ، والصراط المستقيم ، والحبل المتين ، وشارع النجاة في الفقه ، وعيون المسائل لم يتم ، كتاب نبراس الضياء ، خلسة الملوك . الرواشح السماوية وهو في علم الحديث والدراية . ونسخة من هذا الكتاب كانت موجودة عند صاحب روضات الجنات بخط صدر الدين . كتاب السبع الشداد . الضوابط . الايماضات والتشريقات . شرح الاستبصار . سدرة المنتهى في تفسير القرآن .

وله رسالة في ان المنتسب بالام الى هاشم — من السادات الكرام على ما اختاره العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي وله ايضاً حواشٍ على الكافي وكتاب من لا يحضره الفقيه وهما من اهم كتب الحديث والمير الفندرسكي الذي ارشده اليهما هو ابو القاسم الفندرسكي وفندرسك من نواحي استراباد ايران[1] حكيم الهي صوفي زاهد شاعر كان بارعاً في العلوم الرياضية والفلسفة وارتاض في الهند مدة مديدة وبعد ان عاد من الهند الى العراق دعا اهل العلم الى مسلكه توفي بين سنة ١٠٣٠ هـ وسنة ١٠٤٠ هـ

(تلامذته المشهورون) : ومن اشهر تلامذته محمد بن مرتضى المدعو بمحسن الفيض وهو ختن صدر الدين . كان عالماً محدثاً صلباً كثير الطعن على المجتهدين وقد سبق كلام

(١) استراباد بلدة صغيرة في نواحي قبائل ترك خراسان .

صاحب (لؤلؤة البحرين) الشيخ يوسف البحراني في مسلكه التصوفي تلمذ في الحديث على السيد ماجد البحراني في مدينة (شيراز) وفي اصول العقائد على الفيلسوف صدر الدين محمد بن ابراهيم . وله آثار علمية أفرد لها فهرستاً منها : كتاب الصافي في تفسير القرآن الكريم (طبع في ايران) .

واكثر كتبه أخلاقية على سبيل العرفان في السير والسلوك وهي تشبه كتب الغزالي ومنها : كتاب المحجة البيضاء في احياء الاحياء وكتاب محجة الحقائق في أسرار الدين وكتاب تشريح العالم في بيان العالم وأجسامه وأرواحه وكيفيته وحركات الافلاك والعناصر وأنواع البسائط والمركبات وكتاب حدوث العالم .

راه صواب (اي طريق الصواب) بالفارسية في سبب اختلاف اهل الاسلام في المذاهب . وكتاب ابطال الجواهر الافراد . فهرست العلوم شرح فيه أنواع العلوم وأصنافها . قال السيد الجزائري [1] تصانيف استاذي الفيض تربو على مائتي كتاب ورسالة ومنهم المولى عبد الرزاق بن علي بن حسين اللاهجي الجيلاني ثم القمي كان حكيماً متشرعاً ومتكلماً محققاً ومنشئاً بليغاً ومنطقياً وشاعراً جليلاً له مصنفات كثيرة في الحكمة والكلام منها كتابه المشهور بگوهر مراد .

كتاب شرح تجريد نصير الدين الطوسي الفيلسوف وهذا الكتاب في الامور العامة . كتاب الشوارق في الحكمة : شرح الهياكل في حكمة الاشراق الكلمات الطيبة في المحاكمة بين المير الداماد وتلميذه صدر الدين في اصالة الماهية والوجود . رسالة حدوث العالم . حاشيته على حاشية الخفري على الهيآت . شرح التجريد . حاشيته على شرح الاشارات . لنصير الدين الطوسي الفلكي .

وكان قد درس على صدر الدين وكان مدرساً بمدرسة قم الى ان توفي بها بعد النصف من القرن الحادي عشر .

وردت كلمة موجزة في (معلمة الاسلام الانجليزية) عن صدر الدين بقلم العالم المستشرق (كابمان هوار) . وعد من تلاميذه القاضي سعيد القمي ولكن ترجمته تفيد انه تلمذ على

---

(١) هو السيد نعمة الله الذي سبق ذكره .

محسن الفيض تلميذ صدر الدين وهو القاضي سعيد محمد بن محمد مفيد حكيم أديب عارف تولى القضاء في (قم) وتلمذ على محسن الفيض الذي سبق ذكره . وله كتاب كبير شرح به توحيد الصدوق[1] في عدة أجزاء ومنه نسخة في خزانة كتبنا وهو شرح نفيس يشتمل على أنفس مباحث اللاهوت والعرفان . وكان معظماً عند الشاه عباس الصفوي الثاني وامرائه .

قرأ الحكميات على المولى عبد الرزاق اللاهيجي بقم وتوفي هناك ولا يعلم على التحقيق سنة وفاته والمظنون ان وفاته كانت في أواخر القرن الحادي عشر او أوائل الثاني عشر .

(تأليفاته الفلسفية) : (١) كتابه الكبير الاسفار وهو مرآة فلسفته الجلية صنفه في جبال (قم) بعد تأملاته العرفانية الفلسفية في فاتحته يقول بعد الشكوى من العصر واهله في زمن انزوائه في بعض الديار كما أسلفنا ثم اهتز الخامد من نشاطي وتموج الجامد من انبساطي . الى ان قال : فصنفت كتاباً آنيقاً للسالكين المشتغلين بتحصيل الكمال وأبرزت حكمة ربانية للطالبين لاسرار حضرة ذي الجلال والجمال وترتيبه هكذا :

(السفر الاول) وهو الذي من الخلق الى الحق في النظر الى طبيعة الوجود وعوارضه .

و (الثاني) السفر بالحق في الحق .

و (الثالث) السفر من الحق الى الخلق بالحق .

و (الرابع) السفر بالحق في الخلق .

ثم قال فرتبت كتابي هذا طبق حركاتهم في الأنوار والآثار على اربعة أسفار وسميته بالحكمة المتعالية في الاسفار العقلية ولايخفى مافي هذا القول من النزعة الصوفية مع ان الكتاب يحتوي على أهم المباحث الفلسفية الالآهية بل جميعها طبع في ايران قبل عدة سنين .

وهم (الكونت دوغوبينو) وزعم ان هذا الكتاب الكبير اربع رحلات كتبها صدر الدين في أسفاره فانه لما ذكر عدد تآليفه وقال فضلاً عن ذلك وضع اربع رحلات ووهمه نشأ من اسم الكتاب مع انه أهم تآليفه ومرآة افكارة الفلسفية ولم يتدبر في موضوع الكتاب .

---

(١) وعد صاحب كتاب قصص العلماء من تلاميذه الشيخ حسين .

(٢) كتاب الواردات القلبية ·
(٣) كتاب المسائل القدسية والقواعد الملكوتية ·
(٤) كتاب الحكمة العرشية } شرحهما الشيخ احمد زين الدين الاحسائي مؤسس
(٥) كتاب المشاعر } مذهب الشيخية الامامية (طبع في ايران) ·
(٦) كتاب الشواهد الربوبية وهو من افضل كتبه الفلسفية واعلاها (طبع في ايران) ·
(٧) كتاب المبدأ والمعاد وحاول ان يوفق فيه بين الدين والفلسفة ·
(٨) كتاب في حدوث العالم وفيه اهم آرائه الفلسفية ·
(٩) كتاب شرح الهداية ·
(١٠) حاشية على الآهيات الشفاء للرئيس ابن سينا الفيلسوف ·
(١١) حاشيته على شرح حكمة الاشراق للسهروردي ·
(١٢) اجوبة على مسائل عويصة ·
(١٣) اجوبة على مسائل سألها المحقق الطوسي الفيلسوف عن بعض معاصريه ولم يأت المعاصر بجوابها ·
(١٤) رسالة في حل الاشكالات الفلكية ذكر اسمها في بحث غايات الافعال الاختيارية في الاسفار ·
(١٥) رسالة في تحقيق اتصاف الماهية بالوجود (طبع في ايران) ·
(١٦) رسالة اكسير العارفين في معرفة طريق الحق واليقين ·
(١٧) رسالة في اثبات الشوق للهيولى (المادة) او ذراتها ·
(١٨) رسالة في اتحاد العاقل والمعقول ·
(١٩) رسالة في خلق الاعمال ·
(٢٠) رسالة (في الحركة الجوهرية) وهي نظرية تفرد بها صدر الدين ·
(٢١) رسالة في سريان الوجود وهي من انفس تآليفه ·
(٢٢) رسالة في الحشر ·
(٢٣) رسالة في التصور والتصديق ·

obeikandl.com

(٢٤) رسالة في التشخص ·

(٢٥) رسالة في القضاء والقدر ·

(٢٦) رسالة اسمها الالواح العمادية ·

(تآليفه الدينية) : وله تآليف دينية من تفسير وحديث ولكنه انقاد فيها الى الفلسفة اكثر من انقياده الى الدين منها مجموعة تفسير لبعض سور القرآن الكريم وآيه (طبع في طهران) تحتوي على ١٢ رسالة :

(١) تفسير سورة البقرة ·

(٢) تفسير آية الكرسي ·

(٣) تفسير آية النور هذه الرسالة موجودة الآن بخط صدر الدين في شيراز عند السيد عبد الحسين ذي الرياستين العارف الشهير ·

(٤) تفسير سورة الم سجدة ·

(٥) تفسير سورة يس ·

(٦) تفسير سورة الواقعة كان موجوداً بخط صدر الدين عند صاحب روضات الجنات ·

(٧) تفسير سورة الحديد ·

(٨) تفسير سورة الجمعة ·

(٩) تفسير سورة الطارق ·

(١٠) تفسير سورة سبح اسم ربك الاعلى ·

(١١) تفسير سورة اذا زلزلت ·

(١٢) تفسير آية (وترى الجبال تحسبها جامدة) طبعت هذه الرسائل بخط سقيم في ايران ·

(١٣) رسالة اسرار الآيات ·

(١٤) كسر اصنام الجاهلية في كفر جماعة الصوفية وليعلم ان التصوف في كل عصره كان يطلق على جماعة من الدراويش الاباحيين ولكن العقليين والاخلاقيين من المتصوفة كان يطلق عليهم في ذلك العصر بالعرفاء ·

obeikandl.com

(١٥) كتاب مفاتيح الغيب (طبع في ايران) .

(١٦) كتاب شرح اصول الكافي تصنيف ابي جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق الكليني الرازي المحدث الامامي الشهير المتوفى سنة (٣٢٨) او (٣٢٩ هـ) قال صاحب روضات الجنات انه ارفع شرح كتب على أحاديث اهل البيت من الأئمة عليهم السلام وقد سلف منا قول البعض ان اول من شرحه بالكفر صدراً كم فرق بين النظر بن .

(١٧) حواشيه على كتاب الرواشح لاستاذه الداماد وكانت بخطه عند صاحب الروضات .

(روح عصر صدرالدين) : اذا اردنا ان نصوّر شخصية رجل حكيم مفكر ظهر بآراء جديدة وافكار نيرة في محيط مظلم جوّه بسحب الجمود والعصبية لا بد ان نصور عصره الذي عاش فيه ليحيط القارئ علماً بشخصية ذلك الرجل البارزة .

ان من درس روح العصر الذي ظهر فيه صدر الدين في المحيط الفارسي يتمثل أمامه روحان روح التصوف البحت وتأويل نصوص الشريعة وروح الجمود على ظواهر الكتاب والسنة والنضال باشكاله كان بين الروحين يشتد آونة و يضعف أخرى . ومؤلفات الفريقين مشحونة بطعن كل على الآخر ولحدوث كل من الروحين وسريانها سبب اصلي نبينه لنصور به روح عصر الفيلسوف .

ولا نعتمد فيما نقول الاّ على كلمات الثقات المشهورين من العلماء الذين عاشوا في فارس في هذا العصر .

اما سبب حدوث التصوف في فارس وانتشاره فيه هو ان التاريخ يدلنا على ان مذهب الباطنية وتعاليم عبد الله وابيه ميمون بن ديصان طافت في كثير من الارجاء الاسلامية فصادفت في فارس تربة صالحة للنمو لان الباطنية تظاهرت بمذهب التشيع وفارس كانت معقل الشيعة والباطنية تقرب من التصوف الاسلامي اذ هما يلتقيان في نقطة تأويل نصوص الشريعة وتقريبها من العقل والقول بان لها باطناً غير ظاهرها اضف الى ذلك ما كان في افكار الفارسيين من الانس بمذاهب الفلسفتين الاغريقية والهندية اللتين يصح ان يعتبر التصوف الاسلامي وليدهما .

ومعلوم ان المذاهب على انواعها فلسفية كانت ام ادبية ام سياسية اذا وجد لها ناصر

ومعاضد من المسيطرين على الامة التي تمذهبت بها تسرع في خطاها والتصوف الفارسي من المذاهب التي هيأ لها الزمان ناصراً ومعاضداً قوياً فان الدولة الصفوية التي عاش في ظلها صدرالدين ظهرت من ناحية التصوف فاول الملوك الصفويين ومؤسس دولتهم كان صوفياً بحتاً وجده الشيخ صفي الدين من اعظم اقطاب الصوفية وقبره في اردبيل[1] مزار لمريديه الى الحال وعليه ابنية فخمة .

خرج الشاه اسماعيل الصفوي من جيلان بلفيف من الصوفية المريدين له ولجده الشيخ صفي الدين في سنة ٩٠٦ هـ وهو ابن اربعة عشر سنة وفتح بلاد اذربايجان فروح التصوف كانت سارية في ملوك ايران الصفويين المعاصرين لصدرالدين قال بعض مورخي الافرنج[2] ان تصوف الشيخ صفي الدين هو الذي حفظ كيان الدولة الصفوية نحو مائتي سنة ولولا ان السياسة الصفوية في جنبها كانت تدعو الى تقوية المذهب المخالف له اي مذهب الجمود الذي كان يحسب نفسه من الدين لكان التصوف اكثر شيوعاً مما كان عليه وذلك ان سلطان الدين كان قوياً والمسيطرون والملوك مضطرون الى مجاراة تيار الفكر الشائع وطاعة صوت الجمهور ولو كان على خلاف ما يرغبون وما يضمرون .

قال الشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١١٨٦ وهو من كبار محدثي الشيعة في كتابه لؤلؤ البحرين في شأن محسن الفيض تلميذ صدر الدين وخريجه الكبير ما نصه :

لاشتهار مذهب الصوفية في ديار العجم وميلهم اليه بل غلوهم فيه صارت له (اي للمحسن) المرتبة العليا في زمانه والغاية القصوى في أوانه وفاق الناس جميع أقرانه وقول هذا المحدث الثقة الجليل يدل على اشتهار مذهب التصوف وكثرة انصاره في العصر الذي عاش فيه صدر الدين .

وكان في جنب هذه الروح الجمود بادياً - في طائفة من اهل الحديث والفقه وكانوا متمسكين بظواهر الكتاب والسنة وكان سببه شدة تمسكهم بالدين واستيلاء سلطانه على نفوسهم وبُعدهم عن اغراضه واسراره .

---

(١) اردبيل مدينة كبيرة في فسيح من الارض واقعة على (٢١٠) كيلومترات من شرقي تبريز في شمالي فارس . (٢) وهو سرجان ملكم في تاريخه الذي وضعه لايران .

وكانوا يرون اتباع العقل المحض والمبادي الفلسفية مروقاً عن الدين وسلوكاً لسبيل المضلين ٠

والقاريء يجد في ضمن هذه الرسالة كلمات للعلماء المشهورين من هذه الطائفة كالسيد نعمة الله التستري والشيخ يوسف السابق الذكر في شأن الفلسفة والتصوف وشأن صدر الدين بقول الشيخ يوسف في ذيل كلامه السابق كان التصوف شائعاً في عصر (المحسن الفيض) حتى جاء على اثره شيخنا المجلسي [1] وسعى غاية السعي في سدّ تلك الشقاشق الفاغرة واطفاء تلك البدع الباثرة [2] وهذا الكلام يمثل للقاريء شقة الخلاف بين المذهبين قلنا ان التصوف كان شائعاً في عصر صدرالدين الا ان شيوعه كان نسبياً وكانت الغلبة للجمود لان السياسة كما قلنا كانت تدعو الى تقوية عضد الدين ورجاله ٠

لان الصفويين اسسوا دولتهم في ظل الدين والتشيع وموالاة اهل بيت النبي عليهم السلام وكان نصر الفقهاء والمحدثين المتمسكين بالظواهر سبباً لحفظ عرشهم ودفع كيد خصومهم ولكن كانت في ضمن هذا النضال للتصوف حركة معنوية صح ان نقول انه كان فائقاً على مظاهر الجمود و يشهد به ان جماعة من العلماء المشهورين بالزعامة الدينية والفقهاء كانوا من انصاره فان الشيخ بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣١ او ١٠٣٠ الذي اعتمد عليه الشاه عباس الاول الصفوي وفوّض اليه منصب شيخ الاسلام في ايران كما ذكر كان ممن ينصر التصوف وقلبه مطمئن بصحته ٠ وكلماته يلوح منها ذلك فهذا دليل على استيلاء روح التصوف على روح هذا الشيخ المحدّث الفقيه الذي كان يمثل بظاهره فريق

---

(١) هو محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي المجلسي الاصبهاني من اعظم محدثي الشيعة ورؤسائهم الروحيين في عصر الصفويين عاصر الشاه سليمان والشاه سلطان حسين الصفويين وكان هذا المحدث الكبير ممن يتصدى لشؤون السياسة و يستشيره السلطان في تدبير الملك وتنظيم ايران وله آثار علمية جليلة كثيرة منها كتابه الكبير (بحار الانوار) في أحاديث الائمة الاطهار في ٢٤ مجلداً كبيراً وفي بعض مجلداته بحث عن علوم متنوعة من الفلك والفلسفة والكلام ولاسيما في جزئه المسمى (بالسماء والعالم) توفي سنة ١١١١ هـ ومجلس كما قيل قرية من قرى اصبهان ٠ (٢) وفي نسخة الباثرة ٠

اهل الجمود وصنف رسالة في وحدة الوجود وبيان مذاهب الصوفية وقال فيها ما نصه :

ولا شك انهم اي الصوفية من اولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة والذين آمنوا وكانوا يتقون . طبعت الرسالة في القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ .

ويدل عليه كلام صاحب لؤلؤ يقول في كتابه المذكور ربما طعن عليه القول بالتصوف لما يتراءى من بعض كلماته واشعاره في هذا العصر الذي تلبّد جوّه بسحب الجمود عاش صدر الدين ، روح فلسفته التصوف واصول الفلسفتين الاغريقية والفارسية الفهلوية وتمكن من وضع تآليفه الكثيرة الجليلة التي أخلدت له الذكر الجميل ولم يصبه ما اصاب الفلاسفة الاحرار من الاضطهاد والزجر والقتل .

(فتوى رجال الدين بكفره) : أفتى جماعة من رجال الدين والفقه المتمسكين بظواهر الشريعة بكفره واخذوا عليه أموراً :

(الاول) انه ذهب الى مذهب وحدة الوجود كما صرّح به في كتبه وفلسفته حتى في تفسيره نقل قول محيي الدين بن عربي ان فرعون مات مؤمناً موحداً واستحسن هذا الكلام بقوله هذا كلام يشم منه رائحة التحقيق .

(الثاني) انه ذهب في شرحه لكتاب الكافي وفي تفسيره لسورة البقرة وفي كتابه الكبير (الاسفار) الى انقطاع العذاب عن اهله في الآخرة وانكر الخلود في النار وهو خلاف ما علم بضرورة من الدين .

(الثالث) ذكر في الاسفار في بحث العشق ان عشق الغلمان وصور الحسان عشق مجازي وهو قنطرة الى عشق الاله وفيه روح المذهب البافليسي .

(الرابع) انه ذهب الى المعاد الجسماني بما لا يلائم ظاهر الشريعة ومذهبه في المعاد كمذهب الشاعر الفيلسوف (عمر الخيام) في رباعيه المشهور :

كردون نكرى زعم فرسودهٔ ماست جيحون اثري زچشم پالوده ماست
دوزخ شرري زرنج بيهودهٔ ماست فردوس دمي زوقت اسوده ماست

وجد هذا الرباعي بخطه في ظهر بعض تفاسيره ومعناه قريب من مذهب الخيام .

اى انكه زاتش درون ميسوزى وز نار جحيم خشم نون ميسوزى

گر زانکه نمونه ردوزخ خواهی بنگر بدرون خود که چون میسوزی
گر زانکه نمونه زدوزخ خواهی بنگر زدرون خود که چون میسوزی

ولقد أجاد الشاعر الكبير محمد السباعي بابراز هذا المعنى الفلسفي في العربية بقوله :

انني ارسلت روحي آنفاً في دياجي الغيب كيما اكتشفا
غامضاً من عالم الخلد اختفى فاثنى روحي ونبّا انما
انا فردوس صفاً نار انتقام

وجد هذا الرباعي بخطه على ظهر تفسيره لسورة الحديد بين رباعيات كلها بخطه .

اي بو العجب از بسكه ترابو العجست وهم همه عشاق جهان از توغست
مسكين دل من ضعيف وعشق توقويست بيچاره ضعيف كش قوى بايدزيست

(تأثير الفلسفة الاغريقية في نفسه) : منذ ظهر الانسان في الوجود خضعت نفسه بقوى العالم مادية كانت او ادبية وقوة التعليم من اقوى المؤثرات في النفس الانسانية ولا سيما اذا كانت القوة المؤثرة مما تقبله النفس بفطرتها أثرت الفلسفة الاغريقية وتعليم ارسطو واتباعه في نفسه اثراً عميقاً ذكر في اول (الاسفار) اني قد صرفت قوتي في سالف الزمان منذ اول الحداثة والريان في الفلسفة الالهية بمقدار ماأوتيت من المقدور وبلغ اليه قسطي من السعي الموفور واقتفيت آثار الحكماء السالفين والفضلاء اللاحقين منقلباً في نتائج خواطرهم وانظارهم مستفيداً من ابكار ضمائرهم وأسرارهم وحصلت ما وجدته في كتاب اليونانيين والرؤساء المعلمين تحصيلاً يختار اللباب من كل باب .

وقال في بحثه عن حدوث العالم واعلم ان أساطين الحكمة المعتبرة عند طائفة ثمانية ثلاثة من الملبين (ثالس وانكسيمانس واغاذيمون) ومن اليونانيين خمسة (انبادقلس وفيثاغورث وسقراط وافلاطون وارسطو) قدّس الله نفوسهم واشركنا الله في صالح دعائهم وبركتهم فلقد اشرقت أنوار الحكمة في العالم بسببهم وانتشرت العلوم الربوبية في القلوب بسعيهم وكل هؤلاء كانوا حكماء زهاداً عباداً متألهين معرضين عن الدنيا مقبلين على الآخرة فهؤلاء يسمون بالحكمة المطلقة ثم لم يسم احد بعد هؤلاء حكيماً بل كل واحد منهم ينسب الى صناعة كبقراط الطبيب وغيره .

(منابع افكار صدر الدين وفلسفته) : نجد فلسفة صدر الدين تستمد من منابع

كثيرة أهمها آراء اليونانيين ولا سيما آراء ارسطو وتلميذه ابن سينا وافكار محيي الدين بن عربي الصوفي وتعاليم الدين الاسلامي المستخرجة من القرآن الحكيم والسنة النبوية فجدير ان نشير الى هذه المنابع الاربعة على سبيل الايجاز ليعلم وجهة فلسفته .

(١ — آراء ارسطو) : فهي آراء وافكار نراها في كتبه الواصلة الينا بواسطة نقلة العصر العباسي الزاهر وفي كتب اليونان والعرب اهمها اثبات الحركة الطبيعية الازلية واثبات احتياج المتحرك بمحرك يحركه بمحرك آخر حتى ينتهي الى متحرك لا يتحرك بآخر فهو جوهر وفعل معاً فهذا المحرك الثابت هو الله مصدر الحركة الابدية التي تتحرك بعلة غائية اي بطريق الجذب نحو المثل الاعظم والشوق اليه كما يتمثل الطير ويستهويه الشيء الجميل بدون دخل لها في ذلك وعلى هذا المثال يجذب عالما الارواح والاجسام نحو الله بدافع ذاتي .

وهو يرى ان المادة قديمة وان المحرك الاول اي الله لم يخلق المادة بل نظمها وان الله جوهر روحاني يتجلى فيه العقل والحياة بأتم مظاهرهما ويتمتع ابداً بالسعادة الكاملة ولانها كه بمشاهدة ذاته لا يلتفت الى العالم .

(٢ — آراء ابن سينا) : فهي على ما يظهر لنا آراء فلاسفة اليونان وافكار ارسطو وتعاليم مدرسة (امينوس سكاس) التي يسميها العرب بمدرسة الاسكندرانيين وتعاليم تلميذه .

(افلوطين) الذي يسميها الشهرستاني بالشيخ اليوناني وهو منظم مذهب أستاذه وكان من آراء هذا الفيلسوف اليوناني فيما وراء الطبيعة (متافيزكا) ان هذا العالم كثير الظواهر دائم التغير وهو لم يوجد بنفسه بل لابد لوجوده من علة سابقة عليه هي السبب في وجوده وهذا الذي صدر عنه العالم واحد غير متعدد لا تدركه العقول ولا تصل الى كنهه الافكار ولا يحده حد وهو أزلي قائم بنفسه فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحاني خالق الخلق ولم يحل فيما خلق بل ظل قائماً بنفسه مسيطراً على خلقه ليس ذاتاً ولابس صفة هو الارادة المطلقة لا يخرج شيء عن ارادته هو علة العلل ولا علة له وهو في كل مكان ولا مكان له وبحث انه كيف نشأ عنه العالم وكيف صدر هذا العالم المركب المتغير من البسيط الذي لا يلحقه تغير . كأن هذا العالم غير موجود ثم وجد كيف يصدر هذا العالم

الفاني من الله غير الفاني . هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير او من غير روية ولمَ وجد الشر في العالم ؟ ما النفس واين كانت قبل حلولها بالبدن ؟ واين تكون بعد فراقه ؟ .

وهذه المسائل وأشباهها التي بحث عنها افلوطين هي مباحث شغلت حيزاً من افكار ابن سينا بعد ان ورثها من المعتزلة والصوفية وجمعية إخوان الصفا . كما هي المسائل التي درسها صدر الدين وزينها للناظرين في القرن الحادي عشر وكانت الشرائع السماوية والقوانين الادبية تشغل مكاناً فسيحاً في مبادئ ابن سينا واليك نص قوله في النبوة بقول :

يوجد رجال ذو طبيعة طاهرة اكتسبت نفوسهم بالطهر وبتعلقها بقوانين العالم العقلي لذا هم ينالون الالهام ويوحي اليهم العقل المؤثر في سائر الشؤون ويوجد غيرهم لاحاجة لهم الى الدرس للاتصال بالعقل المؤثر لانهم يعلمون كل شيء بدون واسطة . هؤلاء هم اصحاب العقل المقدّس وهذا العقل لمن السمو بحيث لا يمكن لكل البشر ان ينالهم منه نصيب وهذا القول صريح في انه يقصد باصحاب العقل المقدّس الانبياء الذين يحظون بالوحي الرباني كما انه اعتراف منه باصل كبير من اصول الاديان وهذه النزعة الدينية أثرت في نفس صدر الدين وصرّح في كثير من كتبه بمثل هذا الرأي الفلسفي الديني وبذلك نعلم ان بن سينا بعيد عما نسبه اليه (الكونت دوغوبينو) في كتابه المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى بقوله ان ابن سينا نهض بل خرج على ما كان يعلمه الدين منذ اربعمائة سنة وانه هدم من الاسلام ومن معتقده جانباً عظيماً نعم انه كان ذا نفوذ كبير على أفكار الملوك والامراء فجهر بآرائه الفلسفية بحرية تامة لكنه احترم في جنبها الدين الاسلامي وكان حقاً معلماً كبيراً للفلسفة في ايران الى قدوم جنكيز خان المغولي .

(٣ — افكار محيي الدين بن عربي) : اكثر افكار هذا الامام الصوفي اخفت علينا وراء حجاب من الرموز والالغاز فما عرفناه من افكاره وحصل لنا اليقين به هو انه كان ممن يعتقد بوحدة الوجود حتى قال انه كفر النصارى ليس بقولهم ان المسيح هو الله بل كفرهم بقولهم انه ابن الله وكأنه كان يؤمن بنظريات اشور الحلولية على ان له آراء في الاخلاق الفاضلة والتي سلك سبيلها الصوفيون كالحب والسكر والتوبة والمجاهدة والخلوة والتقوى ومقامي الخوف والرجاء ومقام الفكر والذكر وأسرارهما وله بحث في النبوة وأسرارها .

وكان محيي الدين يعد من قادة التصوف وحاملي لوائه ومعلميه في ايران كابن سينا الى زمن جنكيزخان المغولي يبجله صدر الدين غاية التبجيل ويقرن اسمه بكلمات التجليل كالعالم الرباني والعارف الكامل وأشباهها واقتبس صدر الدين آراءه وأوردها ضمن الكلمات الفلسفية ·

(٤ — الدين الاسلامي) : اما الدين الاسلامي فالقرآن باصوله العالية وسننه السامية (مرآة) تعاليم هذا الدين الجلي أخى بين العلم والدين وارشد الى توحيد الحق المهيمن وتنزيهه عن كل نقص وشرك واعلن باسم الله واعلاه في وسط كان تعبد الاوثان ورفض كل باطل وحطم كل وثن وصنم · وهو النور الذي ألقى أشعته البيضاء في مدة يسيرة بين الاندلس والهند · ولا زال سراجاً يضيء العالم في قرون طويلة ولكن النزاع في الخلافة في الصدر الاول الذي امتد الى القرون المتأخرة من ناحية وتشابه بعض آيات القرآن الذي دعا المفكرين الى النظر فيها من ناحية أخرى كانا من الاسباب التي اوجدت الفرق واحدثت الجدل ·

فظهر هذا الدين بمظهر غير مظهره الذي تجلى به في الصدر الاول ظهر منحرفاً عن اصله السامي فبهذه الصورة تلقاه صدر الدين ·

(وقوف حركة الفلسفة في ايران) : كانت لفلسفة ابن سينا حركة قوية في ايران الى ان هجم المغول في القرن السابع الهجري فوقفت هذه الحركة لان الغزاة كانوا يرمون الى الترتيب السياسي وتنظيمه ولم يكن لهم اهتمام بالفلسفة لان غاية هؤلاء الفاتحين كانت ان ينشئوا نظاماً مدنياً قوياً بكل ما يمكن من الوسائل ولما صبأوا الى الاسلام رأوا من المعقول ان يسندوا كل الاسناد هذا الدين فلم يوافقوا على نشر فلسفة ابن سينا ومن قال بمذهبه وان هم اهتموا بنشر الفنون والصنائع ·

(ظهور الدولة الصفوية) : قلنا فيما سبق ان الحركة الفلسفية وقفت حينما هجم المغول لان كبير اهتمامهم كان بنشر الفنون والصنائع وقليلاً كانوا يعتنون بالعلم والأدب ·

وسارت الامور هذا السير الى ان تسنم اول الصفو بين غارب العرش وكان صوفياً بحتاً ولكنه لما رأى الشيعية مذهباً خاصاً بالبلاد الفارسية اولع بها هو وخلفاؤه ولعاً يدل على

ذكاء فانهم روجوا نموها وتبسطها بكل ما أوتوا من السطوة والسلطنة ولم يعن بفلسفة ابن سينا .

ولكن الفلسفة كانت تتحرك وتبدي اشارات الحياة لان ارجاع المسببات الى اسبابها والفحص عن علاها مما يطلبه الطبع البشري .

(طريقة التدريس في آسية) : ولما كان الدرس في العلوم العالية في آسية تلقى مشافهة وكان الفلاسفة القائلون بمذهب ابن سينا متفرقين وهم نفر قليل كثيرو الخوف امام علماء الدين اضطر صدر الدين ان يخلي عدة سنين في جبال (قم) متنقلاً في رحلاته في فارس لاقطاً من أفواه الحكماء جميع الشروح التي نشأت من نفوس اصحابها بعد الخبرة والثقة بنفوسهم وبدأ بنفسه بعلم في المدن التي يمر بها ولما لم يكن له منافسون من جهة الفصاحة ولا من جهة التأنق في العبارة ولا من جهة سهولة التعبير كان سامعوه يفرحون بما يلقيه عليهم ويقتنونه بكل حرص وكانوا كثيرين ثم كان ينتقي منهم تلاميذ ذوي فضل ممتاز .

(خوفه من رجال الدين) : وكان صدر الدين نفسه ايضاً يخاف رجال الدين المتمسكين بالظواهر ولهذا كان يسعى جهده ان لا يثير في نفوسهم كامن الريبة فكان موضوع بحوثه اموراً مكنية يثبتها بالادلة الصريحة ولو لم يفعل ذلك لعرّض نفسه لشكاياتهم وتشديدهم عليه تشديدات لا نهاية لها فيخاطر بالعمل عينه بمستقبل اصلاح الفلسفة الذي كان يفكر به فوفق بين فكره وبين مقتضيات الأحوال ولجأ الى الوسيلة العظمى وسيلة التقية والكتمان .

وكان اذا هبط مدينة يحرص على زيارة مجتهديها او علمائها ويجلس في آخر الناس وكان بطيل السكوت واذا تكلم نطق بكل هدوء وسكينة مستحسناً كل كلمة تخرج من أفواه اولئك الأجلة وكان اذا سئل عن معارفه لا ينطق الا بالآراء المدوّنة في أسفار المذهب الشيعي المحض ولا يشير ابداً الى انه يُعنى بالفلسفة وبعد ايام قليلة من رؤية المجتهدين والعلماء كانوا يدعونه بانفسهم الى ان يدرس تدريساً علنياً وللحال كان يلبي دعوتهم .

(طريقه في نشر فلسفته) : وكان يجعل عنوان درسه من ابواب الفقه اولاً ثم يزيد المسألة تدقيقاً في وجوب اتباع الاوامر والنواهي والفرائض على مايفعله امهر العلماء في نظرياتهم فكان هذا العمل يحببه في قلوب العلماء ويزيده اعتباراً . واذا كان يبحث

في باب الوضوء او الصلوة كان ينتقل منها الى أسرارها ومنها الى نواميس الوحي ومنها الى التوحيد وكان هناك يجد مجالاً لاظهار آرائه الفلسفية وابراز شخصيته الكبيرة بآيات من الحذق والمهارة والاستدراك وكشف الاسرار للتلاميذ المتقدمين .

وكان في القاء دروسه يسرد عبارات ذات معنيين راقية تتراءى بوجهين لا يفهمها من تلاميذه الا الذين رسخت أقدامهم في الاستنتاج ثم يغطي كل هذه الأقوال بغشاء رقيق من العبارات الدينية التي تؤيد دينه وتظهر احترامه لمبادي الدين .

(بثه فلسفة ابن سينا) : وكان ينشر مذهب ابن سينا في الطبقة المنورة كلها واذا كان يحرص على اخفاء مذهبه في كلامه فكان اخفاؤه له فيما يكتبه اقوى واعظم والوقوف على حقيقة مذهبه الفلسفي صعب الا لمن اتصل سند درسه الى تلامذته الذين تلقوه عن نفسه ولمن وقف على اصطلاحاته الفلسفية وسند آرائه غير مقطوع في هذا العصر ولكن قل عدد تلامذته اليوم وكان في عصر ناصر الدين شاه القاجار جماعة من كبار تلامذته اي الذين كانوا ينقلون جيلاً بعد جيل عن معلمهم الاكبر من اسر فكره و بايديهم مقاليد العبارات التي كان يتخذها لكي لا يعبر عن افكاره صريحاً .

(شخصيته الفلسفية) : يقول (الكونت دوغوبينو) ان صدر الدين لم يكن منشئ فلسفة جديدة بل هو أعاد الى فلسفة ابن سينا ضرمها واضاءها في مصباح جديد والحق انه اظهر شخصيته من ناحية مذهبه الفلسفي واتى برأي جديد مستقل في بعض مسائل فلسفية وخالف ابن سينا في مسائل جمة وسنشير الى بعضها ضمن هذه الرسالة . ولا شك انه كان مصلحاً للفلسفة الآسيوية وهو الذي البسها ثوباً يقبله كل من ينظر اليها فقبلها من كان في عهده واعجب بنظرياته العارفون .

ولا غرو فانه عاش في عهد غير عهد ابن سينا وفي وسط غير وسطه .

بدرسنا شخصية هذا الفيلسوف نراه انه أخلد اثر العلم اذ نفخ في رميم مذهب ابن سينا واعاد اليه شبابه في العصر الذي عاش فيه والبسه حلة مكنته من ان ينتشر في جميع مدارس ايران واستطاع ان يفسح لمذهبه الفلسفي موطناً بجانب تعاليم الدين ولولا خدمته العلمية لكان نجم الفلسفة يغرب وراء ظلمات الغزوات المغولية . وعشاق الفلسفة مدينون لهذا الفيلسوف الكبير . وحقاً بعد معلماً كبيراً للفلسفة في ايران بعد ابن سينا الى الآن .

(مذهبه في أزلية العالم المادي وحدوثه) : افترق الدين والفلسفة في مسألة قدم العالم وحدوثه فبالضرورة ينتهي البحث الى أزلية (المادة وحدوثها) قدماً زمانياً بصرح الدين بظاهره بالحدوث وان يد الباري ابدعت المادة من العدم والفلسفة تجهر بالقدم ·

وقف صدر الدين امام هذه المسألة العويصة وقوف المتحير ورأى نفسه بين تجاذب قوتي الدين والفلسفة ·

يقول في اول رسالته في الحدوث (١) هذه المسألة تحيرت فيها افهام الفحول لغموضها والناس فيها بين مقلد كالحيارى ومجادل كالسكارى فمن المدققين من اعترف بالعجز عن اثبات الحدوث للعالم بالبرهان قائلاً ان العمدة في ذلك الحديث والاجماع من الملتين اذ الاول قد يحصل بالتقليد او الجدل وهما مناط الظن والتخمين والثاني لكونه بصيرة باطنية لا يحصل الا بالبرهان المنور للعقول التابع للوصول · (٢) وزيّف آراء المتكلمين التي تمسكوا بها في حدوث المادة · وقال فمنهم من يتصدى لاثبات هذا المقصد العظيم بالأدلة المتزلزلة والاقيسة المختلة كالمتكلمين زعماً منهم ان تمهيد اصول الدين مما يحتاج الى تلك الكلمات الواهية ·

وقال وما احسن قول (الغزالي) في حق من تصدى لنصرة قوام الدين بالامور السخيفة انه صديق جاهل · وقال ايضاً ان ايراد مثلها في معرض الانتصار للشرع القويم ربما يؤدي الى خلل عظيم من حيث ان صغار العقول ربما يزعمون ان اصول الدين مبنية على هذه الدعاوي الواهية هذا كما ان بعض المحدثين نقل ان بعض الزنادقة وضع الاحاديث في فضل الباذنجان منها (كلوا الباذنجان فانها اول شجرة آمنت بالله تعالى) ·

وقال انما وضعه ليتوسل به الى القدح في صدق النبي (ص) الذي شهد الله تعالى بصدقه وهو نفسه لم يستطع ان يخطئ مبادئ الدين القائلة بالحدوث لقوة ايمانه بالانبياء وقبول اصول تعاليمهم قبولاً فلسفياً ·

وقد رأي ابي نصر الفارابي المدوّن في رسالته في الجمع بين رأي الحكيمين افلاطون وارسطو بتأويله مذهب افلاطون في الحدوث بالحدوث الذاتي والافتقار الى الصانع ·

وقال هذا القول في الحقيقة تكذيب للانبياء من حيث لا يدري وقال ان النصوص

المأثورة عن افلاطون تعطي انه يريد بالحدوث الحدوث الزماني لا الحدوث الذاتي وقال وهذا من قصور ابي نصر في البلوغ الى شأو الأقدمين ·

ونقل عن افلاطون في كتابه المعروف (بفاذا) وفي كتابه المعروف (بطيماوس) كما حكى عنه تلامذته (كأرسطو) و (طيماوس) و (شافرطوس) و (ابرقلس) انه قال ان للعالم مبدأ محدثاً ازلياً واجباً بذاته عالماً بجميع معلوماته على لغة (او نعت ؟) الأسباب الكلية كان في الازل ولم يكن في الوجود رسم ولا ظل (اوظلل ؟) الا تمثال عن الباري جل اسمه ربما يعبر عنه بالعنصر الاول ووجّه ايضاً رأي ارسطو بانه يريد من الحدوث الحدوث الزماني ورأى ان العالم لا يصدق حدوثها من العدم المحض وفكر فكراً عميقاً ليحل المعضلة ولما انتهى فكره الى نقطة وجد فيها سبيله للتخلص من ظلمة هذا الشك ·

رأى ان ارسطو قد حان ليجهر برأيه فقال ان هذه المسألة عندي في غاية الوضوح والانارة لم اجد من نفسي رخصة في كتمانها وعدم الافاضة بها على من يستأهلها ويقبلها واخذ يجهر برأيه قائلاً ان ماسوى الله حادث · ولا قديم ذاتاً وزماناً الا الله تعالى ·

(نظرية الحركة في الجوهر) : سلك في أزلية المادة مسلكاً وفق به بين الدين والفلسفة وابدى نظرية سماها (الحركة الجوهرية) وهي نظرية في غاية الغموض والابهام تكاد تشبه نظرية (انشتين) بعسر فهمها الا بالامعان والتدبر العميق في فلسفته واصطلاحه ·

وهي ان العالم المادي مطلقاً لا يزال في تجدد مستمر فالمادة بجوهرها في الآن الثاني غير المادة في الآن الاول وهي متحركة دائماً بحركة جوهرية وللهيولي والصورة في كل آن تجدد مستمر ·

ولتشابه الصور في الجسم البسيط ظن ان فيه صورة واحدة مستمرة لا على التجدد وليست كذلك بل هي واحدة بالحد لا بالعدد لانها متجددة متعاقبة على نعت الاتصال لا بان يكون متفاصلة متجاورة ليلزم تركيب المقادير والأزمنة من غير المنقسمات وبهذه النظرية استنتج التوفيق بين الدين والفلسفة فالدين انما أراد من الحدوث تجدد المادة وحركتها حركة جوهرية وهي حادثة في كل آن وان لم يكن لها مبدأ زماني وهو يوافق العلم فلا اختلاف بينهما اذ كل منهما يقول بالحدوث بهذا المعنى والمبنى اي تجدد المادة تجدداً جوهرياً ·

وكل منهما يقول بالقدم لانها لا يتصوّر عقلاً حدوثها من العدم البحت حتى يتصوّر لها مبدأ زماني وهي نتيجة عدة اصول :

منها انه فرض للوجود طرفين وهو في احد طرفيه فعلية محضة من جميع الجهات وهو الباري الموجد تعالى وعبارة اوضح هو الوجود المطلق وفيه كل الكمال المتصور الفعلي وفي طرفه الآخر قوة محضة من جميع الجهات الا في فعلية القوة[1] وهذا يطلق على الهيولى[2] .

فيكون في الوجود طرفان (الباري) تعالى و(الهيولى) والباري تعالى وجود اكمل من جميع الجهات فلا يحتاج الى الخروج عما كان وفي الوجود ايضاً مرتبة وسطى له الفعلية من جهة والقوة من أخرى فبالضرورة يكون فيه تركيب فذاته مركبة من شيئين احدهما بالفعل والآخر بالقوة وله من جهة القوة ان يخرج الى الفعل لغيره .

وهذا الخروج اذا كان بالتدريج يسمى حركة والحركة هي فعل او كمال اول للشيء الذي هو بالقوة[3] ومعنى الحركة التجدد والانقضاء .

والتجدد في المادة صفة ذاتية فلا تحتاج الى جاعل وفاعل يجعلها متجددة وهذا الرأي يفيد ان يد الباري اوجدت المادة متحركة والحركة موضوعة في طبعها والعلم الحديث ايضاً يقول ان حركة الذرات في طبعها ومنها المتحرك انما يتحرك بشيء آخر لا يكون بنفسه متحركاً فتكون حركة بالقوة فقابل الحركة امر بالقوة وفاعلها امر بالفعل والحركة على مذهبه سببها وجود فعلية القوة وللشيء ان يخرج الى الفعل لغيره ومنها ان مبدأ الحركة الطبيعة لا النفس ولا العقل[4] وقال الفاعل المباشر للحركة ليس عقلاً محضاً من

---

(١) فسر اصطلاحه في القوة بقوله هو مايقال لمبدإ التغير في شيء آخر من حيث هو شيء آخر سواء أكان فعلاً ام انفعالاً ويقول ايضاً ان القوة الفعلية قد تكون مبدأ الحركة واذا كانت مبدأ للحركة لا تخلو من التجدد والتغير فهو متحرك حافظ لتغيره وقد تكون القوة وراء مالا يتناهى بما لا تتناهى في الايجاد والابداع كقوة الباري وقد يكون في الانفعال بما لا يتناهى كالهيولى الاولى . (٢) فسرنا الهيولى فيما سبق . (٣) وهذا تعبير آخر عن سير الوجود نحو الكمال والارتقاء اليه حسب قانون النشوء والارتقاء .

(٤) العقل يطلق في اصطلاحه على الجوهر المجرد الروحي .

غير واسطة لعدم تغيره ولا نفساً من حيث ذاتها العقليـة بل ان كانت محركة فهي اما من حيث كونها في الجسم او من حيث تعلقها به فيكون اما طبيعة او في حكم الطبيعة ·

والطبيعة على مذهبه سيالة الذات متجددة الحقيقة نشأت حقيقتهـا المتجددة بين مادة شأنها القبول والزوال وفاعل محض شأنه الافاضة والإكمال فلا يزال ينبعث عن الفاعل امر وينعدم في القابل ثم يجبره الفاعل بايراد البدل على الاتصال ·

فهذه الاصول وصل الى النتيجـة التي هي مفاد نظريته وهي ان مبدأ الحركة سواء أكانت طبيعية ام ارادية ام قسرية هي الطبيعة · والحركة معناها التجدد والانقضاء ومبدأ التجدد لا بد ان يكون متجدداً فالطبيعة بالضرورة متجددة بحسب الذات لان المتحرك وهي المادة لا يتصوّر صدوره عن الساكن ويستحيل صدوره عن الثابت وقال و بصحة هذا الاصل اعترف الرئيس ابن سينا وغيره بان الطبيعة من جهة الثبـات ليست علة الحركة وقالوا لا بد من لحوق التغير بها من الخارج ·

والطبيعة اذا كانت متجددة فالمادة في الآن الثاني بجوهرها غير المادة في الآن الاول · قال في آخر الفصل الرابع من رسالة الحدوث :

تنبيه تمثيلي ان كان كل شخص جوهري له طبيعـة سيالة متجددة وله ايضاً امر ثابت مستمر نسبته اليها نسبة الروح الى الجسد فان الروح الانساني لتجردها باقية وطبيعة البدن ابداً في التجدد والسيلان والذوبان وانما هو متجدد الذات الباقية بورود الامثال والخلق الى غفلة عنه (بل هم في لبس من خلق جديد) وكل حال الصور الطبيعية متجددة من حيث وجودها المادي الوضعي الزماني فلها كون تدريجي متبدل غير مستقرّ الذات ومن حيث وجودها العقلي وصورتها المفارقة (او المقارنة ؟) الافلاطونية[1] باقية ازلاً وابداً في علم الله تعالى فالاول وجود دنيوي بائد داثر لا قرار له والثاني وجود ثابت غير داثر لاستحالة ان يزول شيء من الاشياء عن علمه او يتغير علمه تعالى (ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين) ·

ولما ابدى نظريته ونبه انه تفرّد بها قال في الفصل الخامس من رسالة الحدوث اما قولك فيما سبق ان هـذا إحداث مذهب لم يقل به احد من الحكماء فهو كذب وظلم

(١) تطلق الصورة الافلاطونية في الفلسفة اليونانية على عالم المثال والجواهر المجردة ·

فان اول حكيم قال به في كتابه هو الله سبحانه وهو أصدق الحكماء فانه قال : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وقال : (بل هم في لبس من خلق جديد) . وقوله : (والسموات مطويات بيمينه) وقوله : (على ان نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون) .

ونمسك ببعض آيات وروايات أخر تركنا ذكرها لعدم دلالتها في نظرنا ثم نقل عن ابن عربي قوله في الفصوص : ان الانسان في الترقي دائماً وهو لا يشعر بذلك لكثافة الحجاب ورقته وتشابه الصور مثل قوله : (وأتوا به متشابهاً) ونقل قوله في الباب السابع والستين والمائة من الفتوحات فالوجود كله متحرك على الدوام .

(اختياره مذهب التصوف ووحدة الوجود) : هذا الفيلسوف الذي يدور اكثر مباحثه حول التفكر في الآله المبدع ووحدته وصفاته المعنوية من العلم والحكمة والقدرة او ان شئت قل بحث عن القوة المدبرة للكون وفلسفته تستقي من معين التصوف ووحدة الوجود معتمدة على المبادئ الاشراقية وروح فلسفة افلاطون وارسطو بادية باجلى مظاهرها فيها وبارح للناظر في كلماته انه إبان درسه الفلاسفة خاض مدة مديدة لجج المسائل اللاهوتية ووازن حجج الفلاسفة من الاشراقيين والمشائين ودرس اصول المتكلمين واصحاب الجدل وعرف انها جميعاً لا توصل الى الحق ولا تروي غليله لانها معكرة بتناقض المبادئ .

وكيف تسكن نفس رجل زكي الفؤاد رقاد الذهن بالابتعاد ظلمة المضلات في المسائل اللاهوتية العويصة وهي تحاول ان تبلغ مرتبة الشهود والعيان من مراتب الايمان وبعد مدة طويلة لما لم يجد ضالته في درس أدلة الجدليين الذين يقول في شأن فلسفتهم اني أستغفر الله وأستعيذ عما ضيعت شطراً من عمري في طريقهم غير المستقيم لاذ بحجر التصوف وهناك وجد سكونه واطمئنانه واخذ يسعى في التوفيق بينه وبين الشريعة بتأويل نصوصها وتوجيهها اليه .

جرت عادة الباحثين في المسائل اللاهوتية الا الصوفيين ان يضعوا باباً في البحث عن الموجد للكون .

ويذكروا فيها أدلة يستمد بعضها من ابطال التسلسل او الدور لزعمهم ان المبدع الحكيم (اي القوة المدبرة) منفصل عن الكون ولكن الصوفيين يرون ان الوجود المنبسط الذي

يمثل الكون بمحسوسه ومعقوله كاف للدلالة على وجود الموجد وصفاته لانه عينه وفي كل شيء آية دالة على وحدته ومذهب وحدة الوجود (البانتيسم) الله في الكل والكل في الله هو سر التصوف وروحه ولاجل ذلك لا يتمسكون بادلة الكلاميين والجدليين وفرق الفلاسفة الذين تقرب فلسفتهم من مبادیهم ولا يستدلون بوجود القوة المدبرة المبدعة باكثر من بحثهم في شؤون الوجود المنبسط ومراتبه وظهوره .

وصدر الدين وان أفاض في البحث عن كل المباحث اللاهوتية واكثر مباحث الفلسفة الادبية والفلسفة العامة وتبحر فيها الا ان غرضنا الذي نرمي اليه هو ان نأتي من فلسفته بنقطتي الوفاق والخلاف مع الفلسفة المادية . وهي مسائل طالما سرّح الانسان افكاره حولها كمسألة هل المادة أزلية ام حادثة ؟ وهل للكون مبدع غير الطبع ؟ وهل هو شاعر عالم ؟ وهل في خلق الكون غاية وحكمة او لا ؟ ثم نردفها ببعض آرائه العلمية والادبية . وبذلك نصور نفسية رجل حكيم خدم اللغة العربية والعلم خدمة جليلة .

(طريقه الى معرفة الله تعالى) : يقول في الجزء الثالث من الاسفار الاربعة (فصل) في إثبات واجب الوجود والوصول الى معرفة ذاته : واعلم ان الطرق الى الله كثيرة لانه ذو فضائل وجهات كثيرة ولكل وجهة هو موليها لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض . وأسد البراهين وأشرفها اليه هو الذي لايكون الوسط في البرهان غيره بالحقيقة فيكون الطريق الى المقصود هو عين المقصود وهذه سبيل الصديقين الذين يستشهدون به تعالى عليه ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله واحداً بعد واحد وغير هؤلاء : كالمتكلمين والطبيعيين وغيرهم يتوسلون الى معرفة الله تعالى وصفاته بواسطة امر آخر غيره كالامكان للهية والحدوث للخلق والحركة للجسم او غير ذلك وهي ايضاً دلائل على ذاته وشواهد على صفاته لكن هذا المنهج أحكم وأشرف وقد أشير في الكتاب الالهي الى تلك الطرق بقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) والى هذه الطريقة أشار بقوله : (أوَ لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) .

وذلك لان الربانيين ينظرون الى الوجود ويحققونه ويعلمون انه أصل كل شيء ثم يصلون بالنظر اليه الى انه بحسب اصل حقيقته واجب الوجود . واما الامكان والحاجة

والمعلولية وغير ذلك فانه يلحقه لا لاجل حقيقتـه بل لاجل نقائض واعدام خارجة عن اصل حقيقته ثم بالنظر فيما يلزم الوجوب او الامكان يصلون الى توحيـد ذاته وصفاته · ومن صفاته الى كيفية أفعاله وآثاره وهذه طريقة الانبياء كما في قوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة) · وهـذا المذهب يشبه مذهب (باسكال) المتوفى سنة ١٦٦٢ م : — أرى في الطبيعة كائناً واجب الوجود دائماً لا نهائياً ·

وقال في اول رسالته في سريان الوجود :

إعلم ان الواجب الحق هو المنفرد بالوجود الحقيقي وهو عينه وغيره من الممكنات موجودة بالانتساب اليه والارتباط به ارتباطاً خاصاً وانتساباً مخصوصاً لا بعروض الوجود كما هو المشهور ·

ثم قال ان الوجود قد يطلق و يراد به الكون في الأعيان ولا شك في كونه امراً اعتبارياً انتزاعياً وقد يطلق و يراد به ماهو منشأ لانتزاع الكون في الاعيان ومصحح صدقه وحمله وهو بهذا المعنى عين الواجب ·

وقال بعد بضعة سطور ان منـاط الوجوب الذاتي ليس الا كون نفس الواجب من حيث هي مبدأ لانتزاع الوجود والموجودية ·

من الاصول المقررة في الفلسفة الالآهية التي وضع عليها بعض الآراء الفلسفية واعترف بها صدر الدين فيما يظهر من كلماته السالفة ان الوجود امر واحد ذو مراتب في الشدة والضعف وله وحدة معنوية ·

ومنها ان الوجود الحقيقي الذي صح ان يكون منشأ لانتزاع الموجودات عنـه والذي هو مصـدر الكون او هو كالشمس منبع الأنوار أزلي موجود قائم بالذات لا جاعل له · ومنها ان مفهوم الوجود من أعرف الاشياء · وكنهه في غاية الخفاء · فانا نرى ذرّة المادة ونحسها بالبصر ونلمسها باليد ولكن اسأل اي انسان تشاء من العلماء الطبيعيين (اي الفيزيولجيين) ما هي ؟ وكيف وجدت أأزلية ام حادثة ؟ وما هو سرّها ؟ يقف أمامك والحيرة ملكت عقله ولا يدري ماذا يجيبك ولا تنفعه اختباراته الكيمية والفيزيكية ·

فمعرفة كنه الوجود رمز لا يزال مجهولاً على رغم جهود الانسان في كشفه منذ الأجيال والقرون وذهب سعيه سدى و كَلَّ جناح فِكره عن الوصول اليه فضم هذه

الأصول بعضها الى بعض ينتج ان القوة التي اوجدت الكون بمعقوله ومحسوسه ومثلت أجزاءه المنسقة ونظمتها بنظامه العجيب — هو الله على مذهب صدرالدين اومن هوسالك سبيله في القول بوحدة الوجود [1] .

وهذا الرأي قريب من مذهب القائلين بان الطبيعة هي موجدة الكون أزلاً ونقطة الوفاق بين المذهبين مذهب وحدة الوجود او الصوفيين ومذهب الطبيعيين هي ما أشرنا اليه . الا ان مذهب الصوفيين وأنصار وحدة الوجود كما سيذكره صدرالدين ونشيراليه يفارق مذهب الطبيعيين في ان هذه القوة الموجدة التي يطلقون عليها الوجود الحقيقي او الواجب الوجود واجدة لجميع مراتب الكمال المعقول ولا يشذ عنها كمال في الوجود فلها العلم والقدرة باقصى مراتبهما فعلمه وقدرته غيرمتناهيين عدة وشدة ومدة . وصدر الدين والصوفيون وأنصار وحدة الوجود لايقولون بانفصال المبدإ (الله) عن الكون كما انهم لا يقولون بالحلول والاتحاد بل يقولون ان ارتباط الكون بالله تعالى وانتسابه كيفية مجهولة . قال صدر الدين في اول رسالته سريان الوجود ما هذا نصه : ثم اعلم ان ذلك الارتباط كما مر ليس بالحالية ولا بالمحلية بل هي نسبة خاصة وتعلق مخصوص يشبه نسبة المعروض الى العارض بوجه من الوجوه وليس هي بعينه كما توهم والحق ان حقيقة تلك النسبة والارتباط وكيفيتها مجهولة لا تعرف اه .

وهذا مذهب (مالبرانش) :

قال في الكتاب الثالث من تأليفه المسمى بالبحث عن الحقيقة ان جميع الكائنات حتى المادية والدنيوية هي في (الله) الا انها بطريقة روحانية محضة لا نستطيع فهمها يرى الله في داخل ذات نفسه كل الكائنات (ص ٧١) محاضرات العالم (دي جلارزا) الاستاذ في الجامعة المصرية وايد صدرالدين مذهبه بقوله تعالى (وهو معكم اينما كنتم

---

(١) والى هذا المعنى أشار الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي :

الله والكون لاعـ ـلان الحياة اقترنا
فما لذا عن ذاك او لذاك عن ذا من غنى
ما الكون الا مظهرٌ له به تبينـــــا

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله على انه بكل شيء محيط وأحاط بما لديهم واحصى . وهو الله في السموات والارض ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون . هو الاول والآخر والظاهر والباطن) . وهذا الفيلسوف لا يرضى ان تحمل هذه الآيات على مجرد علمه تعالى . وقال ولا تصرف هذه الآيات عن ظواهرها فحملها على مجرد علمه تعالى بها او غيرها كما هو شيمة الظاهريين .

فان الصرف عن الظواهر من غير داع اليه من عقل او نقل غير جائز اصلاً ولا داعي هناك قطعاً ولا مانع من الحمل على الظواهر على ماعرفناك فاعترف .

وقال صدر الدين ايضاً الأقرب في تقريب تلك النسبة أعني إحاطته ومعيته بالموجودات ماقال بعضهم من ان من عرف معية الروح وإحاطتها بالبدن مع تجردها وتنزهها عن الدخول فيه والخروج عنه واتصالها به وانفصالها عنه عرف بوجه ما كيفية إحاطته تعالى ومعيته بالموجودات من غير حلول واتحاد ولا دخول واتصال ولا خروج وانفصال وان كان التفاوت في ذلك كثيراً بل لا يتناهى ولهذا قال من عرف نفسه فقد عرف ربه وللتنبيه على هذا المعنى قال بعض المشايخ شعراً :

حق جان جهان است جهان جمله بدن املاك لطائف وحواس اين تن
افلاك عناصر وموالید اعضا توحید همین است دگر هاهمه فن

اي الله روح العالم والعالم كجسمه والاملاك حواس هذا الجسم اللطيفة والافلاك والعناصر الاربعة والموالید الثلاثة اعضاء هذا الجسد وهذا هو التوحيد حقاً وغيره لا يتجاوز كونه فناً من الفنون . ثم يقول ولا يتوهم من ظاهر هذا الكلام ان الواجب الحق روح العالم ونفسه كما توهم بعض القاصرين تعالى عن ذلك علواً كبيراً فان ذلك على ما حقق في موضعه ممتنع بل غرضه تقريب كيفية إحاطته تعالى بالموجودات من بعض الوجوه الى الاذهان السليمة المستقيمة .

(احاطة الوجود وسعته) : وذهب الى سعة في وجود الواجب (اي الله) واحاطة معنوية تامة تشمل الكون باجمعه ولا يشذ عنه شيء وهذا الرأي يوضح مذهب صدرالدين في القوة المبدعة اي (الله) كما انه يوضح معنى وحدة الوجود .

قال في كتابه (شواهد الربوبية) الاشراق العاشر في انه جل اسمه كل الوجود

قول اجمالي كل بسيط الحقيقة من جميع الوجوه فهو بوحدته كل الاشياء والا لكان ذاته متحصل القوام من هوية امر ولا هوية امر ولو في العقل (قول تفصيلي) اذا قلنا لانسان يسلب عنه الفرس اوالفرسيّة فليس هو من حيث هو انسان لافرس والا لزم من تعقله تعقل ذلك السلب اذ ليس سلباً بحتاً بل سلب نحو من الوجود فكل مصداق لايجاب سلب المحمول عنه لايكون الا مركباً فان لك ان تحضر في الذهن صورته وصورة ذلك المحمول مواطأة او اشتقاقاً فنقايس بينهما وتسلب احدهما عن الآخر فما به الشيء هو هو غير مابه يصدق عليه انه ليس هو فاذا قلت زيد ليس بكاتب فلا يكون صورة زيد بما هي صورة زيد ليس بكاتب والا لكان زيد من حيث هو زيد عدماً بحتاً بل لا بد وان يكون موضوع هذه القضية مركباً من صورة زيد وامر آخر به يكون مسلوباً عنه الكتابة من قوة او استعداد . فان الفعل المطلق لايكون هو بعينه من حيث هو بالفعل عدم فعل آخر الا ان يكون فيه تركيب من فعل وقوة ولو في العقل بحسب تحليله الى مهيّة ووجود وامكان ووجوب واجب الوجود لما كان مجرد الوجود القائم بذاته من غير شائبة كثيرة اصلاً فلا يسلب عنه شيء من الاشياء لانه تمامها وتمام الشيء احق به واوكد له من نفسه واليه الاشارة في قوله تعالى (ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى) وقوله (مامن نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولاخمسة الا هوسادسهم) فهو رابع الثلاثة وخامس الاربعة وسادس الخمسة لانه بوحدانية كل الاشياء وليس هو شيئاً من الاشياء لان وحدته ليست عددية من جنس وحدات الموجودات حتى يحصل من تكررها الاعداد بل وحدة حقيقية لامكافي لها في الوجود ولهذا كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ولو قالوا ثالث اثنين لم يكونوا كفاراً . ومن الشواهد البينة على هذه الدعوى قوله تعالى (هو معكم اينما كنتم) فان هذه المعيـة ليست ممازجة ولا مداخلة ولا حلولاً ولا اتحاداً ولا معية في المرتبة وفي درجة الوجود ولا في الزمان ولا في الوضع تعالى عن ذلك علواً كبيراً هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . ونسب اليه هذا الرباعي :

مجموعهٔ كونين باشين سبق　　كرديم تفحص ورقا بعد ورق
حقا كه نخواند يم وند يديم دراو　　جزذات حق وشئون ذاتيه حق

اي تصفحنا صفحات الوجود ورقاً بعد ورق حقاً ما تلونا وما رأينا فيها الا ذات الحق تعالى وشؤون ذاته الحقة ·

ونسب اليه هذا البيت ايضاً :

وما الناس في التمثال الا كثلجة وانت لها الماء الذي فيه [1] نابع

وهذا الرأي ايضاً يشبه مذهب (باسكال) السابق الذكر[2] ·

وهذا المذهب كمذهب الماديين وان في المادة مبدأ مدبراً هو الله وان عنصر النظام الذي نعثر عليه في نواحي المادة هو الله و يشعر بل ينص بقدم المادة وازليتها لان المبدع ليس منفصلاً عنه وان كان ارتباطه بطريق مجهول · بقي شيء : وفرق بين المذهبين مذهب صدر الدين ووحدة الوجود ومذهب الماديين وهو ان الماديين ينكرون الشعور العام المسمى بالعلم وينكرون وجود الغاية والحكمة في خلق الكون واجزاء العالم ونواميسه الجارية ولكن صدر الدين يثبت العلم والغاية في كليهما في الوجود ·

(مذهب صدر الدين في علم الباري تعالى) : من اعوص مسائل اللاهوت التي شغلت حيزاً من افكار الفلاسفة من اقدم عصور الفلسفة هي مسألة علم الباري (الله) اضطربت فيه الآراء واختلفت المذاهب حتى بلغ اصول المذاهب الفلسفية في العلم الى ثمانية اقوال وآراء لان علم الواجب على المبادئ الفلسفية لا يقاس بعلم الممكن ولما فكر صدر الدين في مذاهب الفلاسفة المتقدمين في العلم فوجدها لا تزيح النقاب عن وجه الحقيقة كما يريد — سلك مسلكاً في العلم يتصل الى مسلك وحدة الوجود ولكن العصر لم يكن يسمح له بالتصريح به خوفاً من الاضطهاد الديني ذكر (١) مذهب المشائين وابي نصر وابن سينا و بهمينار (٢) مذهب الاشراقيين والسهروردي صاحب حكمة الاشراق (٣) مذهب المعتزلة (٤) مذهب فرفوريوس وقال ان لكل من هذه المذاهب الاربعة وجهاً صحيحاً لعلم التفصيلي وقال ولا الذ ستراحت اليه قلوب المتأخرين من العلم الاجمالي ·

---

(١) وجدنا البيت بنصه المنقول ولكن ضمير التذكير لا يستقيم الا بارجاعه الى التمثال ·

(٢) ولد باسكال في كليرمون في ١٨ يونيه سنة ١٦٢٣ م وتوفي سنة ١٦٦٢ م ·

بل كما علمنا الله سبحانه بطريق اختصاصي سو ذه الطرق المذكورة ولا ارى في التنصيص عليه مصلحة لغموضه وعسر ادراكه على اكثر الافهام ولكني اشير اليه اشارة يهتدي بها اليه من وفق له وهو ان ذاته في مرتبة ذاته مظهر لجميع صفاته واسمائه كلها وهو ايضاً مجلاة يرى بها وفيها صور جميع الممكنات من غير حلول ولا اتحاد اذ الحلول يقتضي وجود شيئين لكل منهما وجود يغاير وجود صاحبه والاتحاد يستدعي ثبوت امرين يشتركان في وجود واحد بنسب ذلك الوجود الى كل منهما بالذات وهنالك ليس كذلك كما اشرنا اليه بل ذاته بمنزلة مرآة ترى فيها صور الموجودات كلها وليس وجود المرآة وجود ما يتراءى فيها اصلاً (اشارة تمثيلية) واعلم ان امر المرآة عجيب وقد خلقها الله عبرة للناظرين وذلك ان ما يظهر فيه و يتراءى من الصور ليست هي بعينها الاشخاص الخارجية كما ذهب اليه الرياضيون القائلون بخروج الشعاع ولا هي صور منطبعة فيها كما اختاره الطبيعيون ولا هي موجودات عالم المثال كما زعمه الاشراقيون فان كلاً من هذه الوجوه الثلاثة مقدوح مردود بوجوه من القدح والرد كما هو مشروح في كتب الحكماء بل الصواب ما اهتدينا اليه بنور الاعلام الرباني الخاص وهو ان تلك الصو موجودات لا بالذات بل بالعرض بتبعية وجود الاشخاص المقترنة بجسم مشف مستنير صقيل على شرائط مخصوصة فوجودها في الخارج وجود الحكاية بما هي حكاية وهكذا يكون وجود المهيآت والطبائع الكلية عندنا في الخارج فالكلي الطبيعي اي الماهية من حيث هي موجودة بالعرض لانه حكاية الوجود ليس معدوماً مطلقاً كما عليه المتكلمون ولا موجوداً اصلياً كما عليه الحكماء بل له وجود ظلي الخ .

« ايضاح هذا المطلب يتم بعدة مقدمات »

(الاولى) ان علم الباري يمثل بعلم النفس بذاتها فان العلم والمعلوم هناك واحد فالنفس عالمة ومعلومة والعلم ايضاً قائم بها .

(الثانية) ان وجود الباري ببساطته لا يشاب بعدم ونقص وله كمال لا نهائي فارقم درجات العلم واكملها موجود هناك ولا يشوبه غيبة شيء ولا صغيرة ولا كبيرة الا احصاها اذ لو بقي شيء من الاشياء ولم يكن ذلك العلم علماً به لم يكن صرف حقيقة العلم بل علماً بوجه وجهلاً بوجه آخر وصرف حقيقة الشيء لا تمتزج بغيره والا لم يخرج

جميعه من القوة الى الفعل (اي لم يبلغ حد الكمال وهو خلاف الفرض) وعلمه راجع الى وجوده فكما ان وجوده لا يشاب بعدم ونقص فكذلك علمه الذي هو حضور ذاته لا يشاب بغيبة شيء من الاشياء على انه تعالى محقق الحقائق ومشيء الاشياء فحضور ذاته تعالى حضور كل شيء .

(٣) الثالثة ان مثل الواجب الباري كمثل المرآة ومثل الموجودات الممكنات كمثل الصور المرئية فيها المنطبعة على صفحتها بواسطة اسبابها من محاذاة ذي الصورة لها ووجود النور وغيرهما فالصورة مرئية فيها وبها ولكن كيفية انطباعها وظهورها مجهولة لنا فتلك الموجودات تظهر في وجه الله وقيامها وظهورها يكون به تعالى فالطبائع الكلية لها وجود ظلي لولا وجود الباري لم يكن لها ظهور كما انه لولا المرآة لم يكن للصور ظهور ووجود . فنحن نبصر الصور في المرآة ولا نعلم كيفية انطباعها فكذلك نرى الموجودات وهي قائمة به تعالى ولكن لا ندري ما هو الوجود الحق الواجب .

(٤) الرابعة فهو عالم بذاته وعلمه هو حضور الذات فنحن اذا فرضنا ان المرآة شعرت بذاتها المنطبعة فيها الصور يكون المثل أقرب الى المقصود . فالوجود اللانهائي عالم بالوجود كافة هذه نهاية ما يصور و يدرك من فلسفة صدر الدين في العلم فهمناه من جملة كلامه المستور بستائر التقية . ثم هذا العلم يتعلق بفعله المتعلق بالايجاد .

(مذهب صدر الدين في الحكمة في اجزاء الكون والقصد من وجودها) : من المسائل الفلسفية الغامضة التي تحير فيها كبار الفلاسفة مسألة وجود القصد والحكمة في تكون العالم (يقول صدر الدين) : زعم ايندقلس (انباذقلس) ان تكوّن الاجرام الاسطقسية بالاتفاق وذهب ذيمقراطيس ومن تبعه ان العالم وجد بالاتفاق وان لم يكن تكوّن الحيوان والنبات بالاتفاق .

يقول الثاني ان مباديء العالم اجرام صغار لا تتجزأ لصلابتها وهي مبثوثة في خلاء غير متناهي وهي متشاكلة الطبائع مختلفة الاشكال دائمة الحركة فاتفق ان تصادمت منها جملة واجتمعت على هيئة مخصوصة فتكوّن منها هذا العالم .

ماهية كل شيء هي حكاية عقلية عنه وشبح ذهني لرؤيته في الخارج وظل له .

ويقول الاول ان تكوّن الاجرام الاستقطسية بالاتفاق فما اتفق ان لم يكن كذلك لم يبق واحتج بحجج منها ان الطبيعة لا روية لها فلا يعقل ان يكون فعلها لاجل غرض ومنها ان الفساد والموت والتشويهات والزوائد ليست مقصودة مع ان لها نظاماً لا يتغير كاضدادها فعلم ان الجميع غير مقصود للطبيعة فان نظام الذبول وان كان على عكس النشو والنمو لكن له كعكسه نظام لا يتغير ونهج لا يهمل ولما كان نظام الذبول ضرورة المادة من دون ان يكون مقصوداً للطبيعة فلا جرم يحكم بان نظام النشو والنمو ايضا بسبب ضرورة المادة بلا قصد وداعية للطبيعة وهـذا كالمطر الذي نعلم جزماً انه كائن لضرورة المادة اذ الشمس اذا تبخرت الماء فخلص البخار الى الجو البارد فلما برد صار ماءً ثقيلاً فنزل ضرورة فالفق ان يقع في مصالح فيظن ان الامطار مقصودة لتلك المصالح وليس كذلك بل لضرورة المادة ٠

ومنها ان الطبيعة الواحدة تفعل افعالاً مختلفة مثل الحرارة فانها تحل الشمع وتعقد الملح وتسود وجه القصار وتبيض وجه الثوب فهذه حجج القائلين بالاتفاق ٠

وضع صدر الدين اولاً مقدمة في دحض حجج هذا المذهب مفادها ان الامور الممكنة على اربعة اقسام (١) الدائمي وهو يوجد بعلته ولا يعارضه معارض كحركة المنظومة الشمسية مثلاً (٢) والاكثري وهو قد يعارضه كالنار في اكثر الامر تحرق الحطب وهو يتم بشرط عدم المعارض سواء أكان طبيعياً او ارادياً فان الارادة مع التصميم وتهيؤه للحركة وعدم مانع للحركة وناقض للعزيمة وامكان الوصول الى المطلوب فبين انه يستحيل ان لا يوصل اليه ٠ (٣) ما يحصل بالتساوي كقعود زيد وقيامه ٠ (٤) ما يحصل نادراً او على الأقل كتكوّن إصبع زائدة اما ما يكون على الدوام او على الاكثر فوجودهما لا يكون بالاتفاق لان الاتفاق معناه ان لا يخضع الشيء للنظام المستمر او الاكثر والثالث والرابع قد يكونان باعتبار ما واجباً اي خاضعاً لناموس لا يتغير مثل ان يشترط ان المادة في تكوّن كف الجنين فضلت عن المصروف عنها الى الاصابع الخمس والقوة الفاعلة صادفت استعداداً تاماً في مادة طبيعية فيجب ان يتخلق اصبع زائدة فعند هذه الشروط يجب تكوّن الاصبع الزائدة ويكون ذلك ايضاً من باب الدائم بالنسبة الى هذه الطبيعة الجزئية وان كان نادراً قليلاً بالقياس الى سائر افراد النوع فاذا حقق الامر في تكون الامر الأقل

انه دائم بشروطه وأسبابه ففي ضرورة المساوي اكثرياً اودائمياً بملاحظة شروطه واسبابه لم يبق ريبة فالامور الموجودة بالاتفاق انما هي بالاتفاق عند الجاهل باسبابها وعللها واما بالقياس الى مسبب الاسباب والاسباب المكتنفة فلم يكن شيء من الموجودات اتفاقاً كما وقع في السنة الحكماء الاشياء كلها عند الاوائل واجبات فلو أحاط الانسان بجميع الاسباب والعلل حتى لم يشذ عن علمه شيء لم يكن عنده شيء موجوداً بالاتفاق فان عثر حافر بئر على كنز فهو بالقياس الى الجاهل بالاسباب التي ساقت الحافر الى الكنز اتفاق واما بالقياس الى من أحاط بالاسباب المؤدية اليه ليس بالاتفاق بل بالوجوب فقد ثبت ان الاسباب الاتفاقية حيث يكون لاجل شيء الا انها أسباب فاعلية بالعرض والغايات غايات بالعرض وربما يتأدى السبب الاتفاقي الى غايته الذاتية كالحجر الهابط اذا شج ثم هبط الى مهبطه الذي هو الغاية الذاتية وربما لا يتأدى الى غايته الذاتية بل اقتصر على الاتفاقي كالحجر الهابط اذا شج ووقف ففي الاول يسمى بالقياس الى الغاية الطبيعية سبباً ذاتياً و بالقياس الى الغاية العرضية سبباً اتفاقياً وفي الثاني يسمى بالقياس الى الغاية الذاتية باطلاً فاذا تحقق ذلك فقد علم ان الاتفاق غاية عرضية لامر طبيعي او ارادي اوقسري ينتهي الى طبيعة او ارادة فتكون الطبيعة والارادة أقدم من الاتفاق لذاتيهما فما لم يكن اولاً امور طبيعية او ارادية لم يقع اتفاقاً فالامور الطبيعية والارادية متوجهة نحو غايات بالذات والاتفاق طارٍ عليها اذا قيس اليها من حيث ان الامر الكائن في نفسه غير متوقع عنها اذ ليس دائماً ولا اكثرياً لكن يلزم ان يكون من شأنها التأدية اليها ثم اخذ في دحض حجج الاتفاق على التفصيل : دحض الحجة الاولى بان الطبيعة اذا عدمت الروية ولا يستلزم او يوجب ان يكون الفعل الصادر عنها غير متوجه الى غاية فان الروية لاتجعل الفعل ذا غاية بل انما يتميز الفعل الذي يختار ويعينه من بين أفعال يجوز اختيارها . ثم يكون لكل فعل من تلك الأفعال غاية مخصوصة يلزم تأدي ذلك الفعل اليها لذاته لا بجعل جاعل حتى لو قدر كون النفس مسلمة عن اختلاف الدواعي والصوارف لكان يصدر عن الناس فعل على نهج واحد من غير روية كما في الافلاك فان الافلاك سليمة عن البواعث والعوارض المختلفة فلاجرم ان تكون أفاعيلها على نهج واحد من غير روية ومما يؤيد ذلك ان نفس الروية فعل ذو غاية وهي لاتحتاج الى روية أخرى

وايضاً ان الصناعات لا شبهة في تحقق غايات لها ثم اذا صارت ملكة لم يحتج في استعمالها الى الروية بل ربما تكون مانعة كالكاتب الماهر لا يروي في كل حرف وكذا العوّاد الماهر لا يتفكر في كل نقرة . واذا روّى الكاتب في كتبه حرفاً والعوّاد في نقره يتبلد في صناعته فللطبيعة غايات بلا قصد وروية .

ودحض الحجة الثانية بان الفساد في هذه الكائنات تارة لعدم كمالاتها وتارة لحصول موانع وارادات خارجة عن مجرى الطبيعة . اما الاعدام فليس من شرط كون الطبيعة متوجهة الى غاية ان تبلغ اليها فالموت والفساد والذبول كل ذلك لقصور الطبيعة عن البلوغ الى الغاية (وها هنا سر ليس هذا المشهد موضع بيانه) واما نظام الذبول هو ايضاً متأد الى غاية وذلك لان له سببين احدهما بالذات وهو الحرارة والآخر بالعرض وهو الطبيعة ولكل منهما غاية فالحرارة غايتها تحليل الرطوبات فتسوق المادة اليه وتقيسها على النظام وذلك للحرارة بالذات والطبيعة التي في البدن غايتها حفظ البدن ما امكن بامداد بعد امداد ولكن كل مدد تال يكون الاستمداد منه اقل من المدد الاول . فيكون نقصان الامداد سبباً لنظام الذبول بالعرض والتحليل سبباً بالذات للذبول وفعل كل واحد منهما متوجه الى غاية ثم ان الموت وان لم يكن غاية بالقياس الى بدن جزئي فهو غاية بالقياس الى نظام واجب لما أعدّ للنفس من الحياة السرمدية وكذا ضعف البدن وذبوله لما يتبعها من رياضات النفس وكسر قواها البدنية التي بسببها تستعد للآخر على ما يعرف في علم النفس . واما الزيادات فهي كائنة لغاية ما فان المادة اذا فضلت أفادتها الطبيعة الصورة التي تستحقها ولا يعطلها كما علمت فيكون فعل الطبيعة فيها بالغاية وان لم يكن غاية للبدن بمجموعه ونحن لم ندع ان كل غاية لطبيعة يجب ان يكون غاية لغيرها . واما ما نقل في المطر فممنوع بل السبب فيه أوضاع سماوية تلحقها قوابل واستعدادات ارضية للنظام الكلي وانفتاح الخيرات ونزول البركات فهي أسباب الهية لها غايات دائمة او اكثرية في الطبيعة .

ودحض الثالثة بان القوة المحركة لها غاية واحدة هي احالة المحترق الى مشاكلة جوهرها واما سائر الافاعيل كالعقد والحل والتسويد والتبييض وغيرها فانما هي توابع ضرورية وستعلم اقسام الضروري الذي هو احدى الغايات بالعرض .

وقد ذكر في كتاب الشفاء ابطال مذهب انباذقلس ببيانات مبنية على المشاهدات وشواهد موضحة ولذلك حمل بعضهم كلامه في البخت والاتفاق على انه من الرموز والتجوزات او انه مختلق عليه لدلالة ما تصفحه ووجده من كلامه على قوة سلوكه وعلوّ قدره في العلوم ومن جملة تلك الدلائل الواضحة ان البقعة الواحدة اذا سقطت فيها حبة برّ وحبة شعير أنبت البرّ برًّا والشعير شعيراً فلم ان صيرورة جزء من الارض برًّا والآخر شعيراً لاجل ان القوة الفاعلة تحركها الى تلك الصور لا لضرورة المادة لتشابهها ولو فرض ان اجزاء الارض مختلفة فاختلافها ليس بالماهية الارضية بل لان قوةً في الحبة افادت تلك الخاصية لذلك الجزء الارضي فان كانت أفادت تلك الخاصية خاصية أخرى سابقة عليها لزم التسلسل وان لم يكن كذلك كانت القوة المودعة في البُرّة لذاتها متوجهة الى غاية معينة والا فلمَ لا ينبت الزيتون براً والبطيخ شعيراً ؟

(نظر بثه في حس المادة وعشق الهيولى) : اذا ألقيت نظرك في كتب الفلسفة ألفيت بين الآراء الفلسفية المختلفة رأياً لبعض الفلاسفة القدماء وهو ان للهيولى شوقاً الى الصورة وكان هذا الرأي مجملاً ومبهماً لم يوضح المراد منه وناهيك ان مثل الشيخ الرئيس ابن سينا الفيلسوف اعترف بانه تعسر عليه فهم معنى شوق الهيولى الى الصورة ولذلك كان هذا الرأي موضع شك وارتياب بينهم حتى افرقت الفلاسفة فيه الى نافٍ .

احتج في نفيه بادلة لا تغني من الحق شيئاً وشاكٍّ لم تقنع نفسه بدليل النفي والاثبات ومثبت أنار برهانه في اثباته ونحن نورد كلام الرئيس ابن سينا المتضمن لدليل النفي وشكه فيه ايضاحاً لرأي صدر الدين قال[1] : وقد يذكر حال شوق الهيولى الى الصورة وتشبيهها بالانثى وتشبيه الصورة بالذكر وهذا شيء لست أفهمه . اما الشوق النفساني فلا يختلف في سلبه عن الهيولى . واما الشوق التسخيري الطبيعي الذي يكون انبعاثه على سبيل الانسياق كما للحجر الى الاسفل ليستكمل بعد نقص له بعد في اينه الطبيعي فهذا ايضاً بعيد عنها ولقد كان يجوز ان يكون الهيولى مشتاقة الى الصورة لو كان هناك خلو عن الصورة كلها او ملال صورة قارنتها او فقدان القناعة بما يحصل له من

(١) في طبيعيات كتاب الشفاء .

الصور المكملة اياها نوعاً وكان لها ان تتحرك بنفسها الى اكتساب الصورة كما للحجر في اكتساب الاين (الانتهاء خ ل) ان كان فيها قوة محركة وليست خالية عن الصور كلها ولا يليق بها الملال للصورة الحاصلة فتعمل في نقضها ورفضها فان حصول هذه الصورة ان كان موجباً للملال لنفس حصولها وجب ان لا يشتاق اليها وان كان لمدة طالت فيكون الشوق عارضاً لها بعد حين لا امراً في جوهرها و يكون هناك سبب يوجبه ولا يجوز ان يكون ايضاً غير قيمة بما يحصل بل مشتافة الى اجتماع الاضداد فيها فان هذا محال و لمحال ربما ظن انه يشاق اليه الاشتياق النفساني واما الاشتياق التسخيري فانما يكون الى غاية في الطبيعة المكملة والغايات الطبيعية غير محالة ومع هذا فكيف يجوز ان يتحرك الهيولى الى الصورة وانما تأتيها الصورة الطارئة من سبب يبطل صورتها الموجودة لا لأنه يكتسبها بحركتها ولو لم يجعل هذا الشوق الى الصورة المقومة التي هي كمالات اولى بل الى الكمالات الثانية اللاحقة لكان تصور معنى هذا الشوق من المتعذر فكيف وقد جعلوا ذلك شوقاً لها الى الصورة المقومة .

قال صدر الدين في اول كلامه ان رأي شوق الهيولى الى الصورة مبنى على المكاشفات النورية والبراهين اليقينية بعد تصفية الباطن بالرياضات .

ثم قال بعد كلام الرئيس المذكور اني لاجل محافظتي على التأدب بالنسبة الى مشايخي في العلوم واساتيذي في معرفة الحقائق لست اجد رخصة من نفسي في كشف الحقيقة فيما اعترف مثل الشيخ الرئيس عظم الله قدره في النشأتين العقلية والمثالية بالعجز عن دركه والعسر في معرفته بل كنت رأيت السكوت عما سكت عنه اولى والاعتراف بالعجز عما عجز فيه لصعوبته وتعسره احرى وان كان الامر عندي واضحاً ومنقحاً حتى اقترح على بعض اخواني في الدين واصحابي في ابتغاء اليقين ان اوضح بيان الشوق الذي اثبته افاخم الحكماء القدماء واكابر العرفاء من الاولياء في الجوهر الهيولاني واكشف قناع الاجمال عما اشاروا اليه واستخرج كنوز الرموز فيما ستروه وافصل ما اجملوه واظهر ما كتموه من التوقان الطبيعي في القوة المادية فالزمني اسعافه لشدة اقتراحه والجأني في انجاح طلبته لقوة ارتياحه فاقول من الله التأييد والتسديد : انه لا بد من وضع اصول لتحقيق هذا المقام تمهيداً وتأصيلاً .

(١) ان الوجود حقيقة واحدة عينية ليس مجرد مفهوم ذهني ومعقول ثانوي كما زعمه المتأخرون وان الاختلاف في مراتبه وافراده ليس بامور فصلية او عرضية بل بتقدم وتأخر وكمال ونقص وشدة وضعف وان صفاته الكماليـة من العلم والقدرة والارادة هي عين ذاته لان حقيقة الوجود وسنخه وتجوهره مبدأ لسائر الكمالات الوجودية فاذا قوي الوجود في شيء من الموجود قوي معه جميع صفاته الكمالية واذا ضعف ضعفت .

(٢) ان حقيقة كل ماهية هي وجودها الخاص الذي يوجد به تلك الماهية على الاستتباع وان المحقق في الخارج والفائض عن العلة لكل شيء هو نحو وجوده . واما المسمى بالماهية فهي انما توجد في الواقع وتصدر عن العلة لا لذاتها بل لاتحادها مع ما هو الموجود والمفاض بالذات عن السبب والاتحاد بين الماهيـة والوجود على نحو الاتحاد بين الحكاية والمحكي والمرآة والمرئي فان ماهية كل شيء هي حكاية عقلية عنه وشبح ذهني لرؤيته في الخارج وظل له .

(٣) ان الوجود على الاطلاق مؤثر ومعشوق ومتشوق اليـه واما الآفات والعاهات التي تتراءى في بعض الموجودات فهي اما راجعة الى الاعدام والقصورات وضعف بعض الحقائق عن احتمال النحو الافضل من الوجود . واما انها ترجع الى التصـادم بين نحوين من الوجود في الاشياء الواقعة في عالم التضايق والتصادم والتعارض والتضاد .

٤) ان معنى الشوق هو طلب كمال ماهو حاصل بوجه وغير حاصل بوجه فان العادم لامر أسًا لا يشتاقه ولا يطلبه اذ الشوق للمعـدوم والمحض والطلب للمجهول المطلق [illegible] لامر ما لا يشتاقه ولا يطلبه لاستحالة تحصيل الحاصل انتهى .

و [illegible] هبه ان الوجود الكامل الذي لا نقص فيه هو الله وهو على ذلك لا يطلب شيئًا وينبغي ان يشتاق اليه الوجود الذي احتمل بواسطة حوصلة ذواتها وعاء وجوداتها مرتبة دون مرتبة الواجب اي مرتبـة ناقصة وقال اذا تمهدت هذه الاركان والاصول فنقول اما اثبات الشوق في الهيولى الاولى فلان لها مرتبـة من الوجود وحظاً من الكون كما اعترف الشيخ الرئيس وغيره من محصلي اتباع المشائين ومرتبتها في الوجود مرتبة ضعيفة عن وة وجود الاشياء الفائضة عليها المتحدة بها اتحاد المادة بالصورة في الوجود بالفصل في الماهية واذا كان لها نحو من الوجود وقد علم بحكم المقدمة الاولى

ان سنخ الوجود واحد ومتحد مع العلم والارادة والقدرة من الكمالات اللازمة للوجود اينما تحقق و كيفما تحقق فيكون لها نحو من الشعور بالكمال شعوراً ضعيفاً على قدر ضعف وجودها الذي هو ذاتها وهويتها بحكم المقدمة الثانية فيكون لاجل شعورها بالوجود النـاقص لها طالبة للوجود المطلق الكامل الذي هو مطلوب ومؤثر بالذات للجميع بحكم المقدمة الثالثة ·

ولما كان بحكم المقدمة الرابعـة كل ما حصل له بعض الكمالات ولم يحصل له تمامه يكون مشتاقاً الى حصول ما يفقد منه شوقاً بازاء مايحاذي ذلك المفقود ويطابقه وطالباً تتميم مايوجد فيه لحصول ذلك التمام فيكون الهيولى في غاية الشوق الى ما يكمله ويتممه من الصور الطبيعية المحصلة اياها نوعاً خاصاً من الأنواع الطبيعية ·

(ايضاح لهذا الرأي) : يتم وضوح هذا الرأي بان نذكر معنى الهيولى المستعمل في الفلسفة الاغريقية وهي لفظ يوناني معناه الاصل والمادة ·

وعرّفه الرئيس ابن سينا في رسالة الحدود بقوله : الهيولى المطلقة هي جوهر ووجوده بالفعل انما يحصل بقبول الصورة الجسمية بقوة فيـه قابلة للصور وقال ايضاً في حدّ المادة ان المادة قد تقال اسماً مرادفاً للهيولى وهي تطلق في الفلسفة الاغريقية والاسلامية على أصغر ذرة من المادة وهي التي يطلق عليهـا العلم الحديث بهيبات او (افوم) وهي الذرة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة لصغرها · يقول ابن رشد الفيلسوف في كتابه ما بعد الطبيعة (الهيولى) الاولى غير مصورة والا لا تحقق في عالم المادة لما لا صورة له ولذلك قال الرئيس في كلامه السابق لا خلوّ لها من الصورة فاذا تحقق هذا فروح هذا المذهب الفلسفي · ورأى صدرالدين ان ذرّات المادة مطلقاً المعبر عنها بالهيولى ذات شعور وحس لان لها حظاً من الوجود والوجود نفسه كما تحقق في الاصل الاول الذي مهده صدرالدين له متحد مع العلم والارادة والقدرة اينما ظهر في أصغر ذرة في المادة او اكبر جرم من الفلك فلها نحو من الشعور بالكمال كما صرّح في كلامه وهـذا الرأي هو نفس رأي (جاجاديس بوز) العالم النباتي الهندي في احساس الجماد والنبات وان المادة سواء اكان انساناً عاقلاً ام حديداً جامداً ام نباتاً او صخراً تحس ·

اذا كشف بوز حس المادة بقوة جهازه (الكوسكوغراف) المغناطيسي الذي يجعل الحركات التي لا ترى بالعين المجردة اكثر وضوحاً بخمسين الف الف ضعف فقوة جهاز

دماغ هؤلاء الفلاسفة الذين ذهبوا بهذا المذهب وسعة فكرهم لا يقل عن قوة جهاز (بوز) والفضل بين فلاسفة الاسلام في انارة برهان هذا الرأي لصدر الدين وهو الفيلسوف الاسلامي الوحيد الذي اطلع هذا النور في سماء العلم والعجب ان مبنى رأي العالمين صدر الدين وبوز شيء واحد يقول بوز في احدى محاضراته عندما شاهدت هذه المشاهدات وجربت ضروب التجارب المختلفة وفهمت حس المادة ورأيت فيها وحدة شاملة ينطوي فيها كل شيء ورأيت كيف ان الذرة ترتعش في موجات الضوء وكيف ان ارضنا تعج عجيجاً بالحياة وتلك الشموس المتسعة التي تضيء فوقنا عندئذ ادركت قليلاً من مغزى تلك الرسالة التي بشر بها اسلافي منذ ثلاثين قرناً على شطوط نهر (الكنج) وهم اولئك الذين لا يرون في جميع الظواهر المتغيرة في هذا الكون سوى واحد فقط اولئك وحدهم يعرفون الحقيقة الازلية .

و يقول صدر الدين ان الوجود حقيقة واحدة والاختلاف بين افراده ومراتبه ليس بتمام الذات والحقيقة بل بتقدم وتأخر وشدة وضعف وكمال ونقص وان الصفات الكمالية من العلم والقدرة والشعور والارادة عين ذاته .

فنصيب الوجود الضعيف وذرة المادة من العلم والشعور والارادة على قدر وجوده ونصيبه من نفس الوجود .

(خاتمة في رأيه في العشق) : بحث في العشق وجعل عنوان البحث قوله فصل في ذكر عشق الظرفاء والفتيان اللاوجه الحسان . وذكر اختلاف الآراء في حسنه وقبحه وهل هو فضيلة او رذيلة . ثم قال والذي يدل عليه النظر الدقيق والمنهج الانيق وملاحظة الامور عن أسبابها الكلية ومباديها العالية وغاياتها الحكمية ان هذا العشق أعني الالتذاذ الشديد بحسن الصورة الجميلة المفرطة لمن وجد فيه الشمائل اللطيفة وتناسب الاعضاء وجودة التركيب لما كان موجوداً على نحو وجود الامور الطبيعية في نفوس اكثر الامم من غير تكلف ، تصنع فهو لا محالة من جملة الاوضاع الالهية التي يترتب عليها المصالح والحكم فلا بد ان يكون مستحسناً محموداً ولا سيما قد وقع من مبادٍ فاضلة لاجل غايات شريفة . اما المبادي فلانا نجد اكثر نفوس الامم التي لها تعليم العلوم الدقيقة والصنائع اللطيفة والآداب والرياضات مثل اهل فارس واهل العراق

واهل (الشام) والروم وكل قوم فيهم العلوم الدقيقة والصنائع اللطيفة والآداب الحسنة غير خالية عن هذا العشق الذي منشؤه استحسان شمائل المحبوب ونحن لم نجد احداً ممن له قلب لطيف وطبع رقيق وذهن صاف ونفس رقيقة خالياً عن هذه المحبة في أوقات عمره لكن وجدنا سائر النفوس الغليظة والقلوب القاسية والطبائع الجافية من الاكراد والزنج خالية عن هذا النوع من المحبة ٠

وقال وبما ان هذه الرغبة والمحبة مودعة نفوس اكثر العلماء والظرفاء فلا بدلها من غاية وجعل من غاية العشق تعليم الصبيان والغلمان العلوم الجزئية كالنحو واللغة والبيان والهندسة وغيرها والصنائع الدقيقة والآداب الحميدة والاشعار اللطيفة الموزونة والنغمات الطيبة وتهذيبهم بالاخلاق الفاضلة وسائر الكمالات النفسانية فهذا العشق بما فيه تكميل النفوس الناقصة وتهذيبها من فائدة حكمية وغاية صحيحة لا بد ان يكون معدوداً من الفضائل والحسنات لا من الرذائل والسيئات ٠

وفي الانسان اثر جمال الله وجلاله واليه الاشارة في قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان في احسن تقويم) وقوله تعالى (ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين) وقسم العشق بقسمين حقيقي ومجازي والاول هو محبة الله وصفاته وافعاله من حيث هي ٠ والثاني ينقسم الى نفساني وحيواني الثاني سببه فرط الشهوة الحيوانية ومبدؤه شهوة بدنية وطلب لذة بهيمية ويكون اكثر اعجابه بظاهر المعشوق ولونه واشكال اعضائه لانها امور بدنية وهو لا يعد فضيلة ٠

والاول سببه استحسان شمائل المحبوب المعشوق وجودة تركيبه واعتدال مزاجه وحسن اخلاقه وتناسب حركاته وافعاله وغنجه ودلاله ومبدئه مشاكلة نفس العاشق والمعشوق في الجوهر ويكون اكثر اعجابه بشمائل المعشوق لانها آثار صادرة عن نفسه فهذا العشق يرقق القلب و يذكي الذهن و ينبه النفس على ادراك الامور الشريفة وقال : ولاجل ذلك امر المشايخ (اي الصوفية) مريديهم في الابتداء بالعشق وقيل العشق العفيف اولى سبب في تلطيف النفس وتنوير القلب وفي الاثر ان الله جميل يحب الجمال ٠

ثم قال ينبغي استعمال هذه المحبة في أواسط السلوك العرفاني وفي حال ترقيق النفس وتنبيهها من نوم الغفلة ورقة الطبيعة ٠

وأما عند استكمال النفس بالعلوم الالآهية وصيرورتها عقلاً بالفعل محيطة بالعلوم الفلكية ذات ملكة الاتصال بعالم القدس فلا ينبغي لها عند ذلك الاشتغال بعشق هذه الصورة المحسنة اللحمية والشمائل اللطيفة البشرية لان مقامها صار أرفع من هذا المقام · وسرد الاقوال في ان العشق هل هو فضيلة او رذيلة او مرض :

ثم قال ومنهم من قال ان العشق هو افراط الشوق الى الاتحاد واستجود هذا الرأي ثم قال ولما كان العشق من آثار النفوس فالاتحاد يصير كما بينت في مباحث العقل والمعقول اتحاد النفس العاقلة بصورة العقل واتحاد النفس الحساسة بصورة المحسوس بالفعل فعلى هذا المعنى يصح صيرورة النفس العاشقة لشخص متحدة بصورة معشوقها وذلك بعد تكرير المشاهدات وتوارد الانظار (النظرات) وشدة الفكر والذكر في أشكاله وشمائله حتى تصير متمثلة صورية حاضرة مندرجة في ذات العاشق وهذا ما أوضحنا سبيله وحققنا طريقه ·

وقال ان العشق بالحقيقة هو الصورة الحاصلة وهي المعشوقة بالذات لا الامر الخارجي · وقال اذا تبين ووضح اتحاد العاقل بصورة المعقول واتحاد الجوهر الحساس بصورة المحسوس فقد صح اتحاد نفس العاشق بصورة معشوقه بحيث لم يفتقر بعد ذلك الى حضور جسمه والاستفادة من شخصه كما قال الشاعر

انا من أهوى ومن أهوى انا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني أبصرته واذا أبصرته أبصرتنا

وخصص قسماً من العشق وهو عشق الالآه الذي هو العشق الحقيقي بالعلماء المتألهين المتفكرين في حقائق الوجود وهم المشار اليهم في قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) ·

وهنالك نبض عرقه البانتيسمي وقال فانه في الحقيقة ما يحب الا نفسه لا غيره فالمحب والمحبوب شيء واحد في الطرفين ·

ونسب رضا قليجان هدايت هذا الرباعي اليه :

انان كه ره دوست گزيدند همه در كري شهادت ارميدند همه
درمعركه دو كون فتح ازعشق است هر چند سپاه او شهيدند همه

حاصل معنى الرباعي ان الفتح في النشأتين الدنيوية والاخروية للعشق وان كان جنده صريعًا في معركة الغرام اه ٠

ابو عبد الله الزنجاني
عضو المجمع العلمي

obeikandl.com

فهرست الكتاب

صفحة

٣ فاتحة الرسالة
٥ مدينة شيراز وطن صدر الدين
٦ أسرته
٧ ولادته
٨ وروده باصبهان
٨ آراء الفقهاء في اعتقاد صدر الدين
١١ وفاته
١١ كلماته في شكواه عن اهل عصره
١٣ اهل الجمود والعوام في نظره
١٣ تأثير معارضة اهل الجمود للفلسفة في نفسه
١٥ حالة ايران العلمية
١٦ ملقيه علومه وفلسفته
١٦ اساتذته
١٧ تلامذته المشهورين
١٩ تآليفه الفلسفية
٢١ تآليفه الدينية
٢٢ روح عصر صدر الدين
٢٥ فتوى رجال الدين بكفره
٢٦ تأثير الفلسفة الاغريقية في نفسه
٢٦ منابع افكار صدر الدين وفلسفته
٢٧ آراء ارسطو
٢٧ آراء ابن سينا

صفحة

٢٨ افكار محيي الدين بن عربي
٢٩ الدين الاسلامي
٢٩ وقوف الحركة الفلسفية
٢٩ ظهور الدولة الصفوية
٣٠ طريقة التدريس في آسية
٣٠ خوفه من رجال الدين
٣٠ طريقة في نشر فلسفته
٣١ بثه فلسفة ابن سينا
٣١ شخصيته الفلسفية
٣٣ مذهبه في ازلية المادة والعالم المادي وحدوثه
٣٣ نظرية الحركة في الجوهر
٣٦ اختياره مذهب التصوف
٣٧ طريقته الى معرفة الله
٤٠ احاطة الوجود بسعته
٤٢ مذهبه في علم الباري
٤٣ ايضاح مسألة العلم
٤٤ مذهبه في الحكمة في اجزاء الكون والقصد من وجودها
٤٨ نظريته في حس المادة وعشق الهيولى
٥١ ايضاح لهذا الرأي
٥٢ خاتمة في رأيه في العشق

obeikandl.com